

الفصل السادس

الحضارة الباهية

- * نظم الحكم والإدارة.
- * النظام العسكري (الجيش والأسطول)
- * الحياة الاقتصادية.
- * الحياة الاجتماعية.
- * الحياة الثقافية والفكرية.
- * الفنون.

obeikandi.com

نظم الحكم والإدارة

عند العباسيين

أولاً: النظام السياسى:

١ - الخلافة أيام العباسيين:

كانت الدولة الإسلامية، قد اتسعت رقعتها وانفتحت على غيرها من الشعوب غير العربية من أصحاب الحضارات القديمة كالفرس والروم والهنود.

وهذا ما جعل المسلمين يقتبسون عن الحضارات التى احتكوا بها، ويأخذون منها وعنهما ما لا يتعارض مع أحكام شريعتهم. ففقدت نظم الحكم والإدارة فى الدولة الإسلامية العباسية كثيراً من عناصر بسلطتها الأولى عهد الرسول الكريم وعصر الخلفاء الراشدين. وذلك التعقيد والزيادة فى المراسيم فرضه الوضع الجديد فى الدولة. وتبعاً لذلك كان الخلفاء العباسيون:

أ - يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب

بينما كان الخلفاء الراشدون يختارون من الشعب عن طريق الشورى ويستمدون قوتهم منه. وأبو بكر الصديق ينادى فى الناس بعد تولية الخلافة قائلاً: "فإن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى". وإن كانت الخلافة الأموية قد أصبحت وراثية (ملكية) فقد كان الخليفة عمر بن عبد العزيز يقول "لست بخير من أحدكم ولكننى أثقلكم حملاً". نرى أن العباسيين قد أقاموا حقهم فى الحكم بوصفهم وارثى بيت الرسول وأنهم قد تأثروا بالفرس فأخذوا عنهم نظرية الحق الإلهى أو الحق المقدس للحكام. أى أن الحاكم يتولى بتفويض مقدس من الله. وهكذا أصبح الخلفاء العباسيون يحكمون بتفويض من الله لا من الشعب، مما جعل الخليفة أبا جعفر المنصور يقول: "إنما أنا سلطان الله فى أرضه وأيضاً الخلفاء

الأربعة: أبو بكر وعمر، وعثمان وعلى والملوك أربعة: معاوية، وعبد الملك، وهشام وأنا" وكان المنصور نفسه أول من تسمى بأسماء منسوبة إلى الله - المنصور بالله.

ب - يجعلون من الخلافة نظاما ثيوقراطيا:

كانت الخلافة الأموية دنيوية بحتة لأنهم لا ينتمون إلى البيت النبوي الشريف فيما جعل العباسيون من الخلافة نظاما ثيوقراطيا أى يسيطر عليه زعماء الدين وبما أن الخليفة العباسى كان أميرا للمؤمنين، وسلطته السياسية مستمدة من مكانته الدينية لذا حرصوا على أن يظهروا الفارق بين خلافتهم وخلافة بنى أمية.

ج - يحيطون بلاطهم بقواعد من البرتوكول:

بموجب تلك الحقوق والصفات التى اتصف بها الخليفة العباسى كان مطلق النفوذ. مستبد السلطان، بيده أمور الدين والدنيا. وهو المصدر الأول والأخير للسلطة وصاحب الأمر والنهى فى الدولة. وما دام الخليفة العباسى قد أصبح ظل الله فى أرضه فإنه كان عليه أن يحيط شخصه بالقداسة والرغبة فاحتجت عن رعيته، واتخذ السياسة، وأحيط بلاطه بقواعد من البروتوكول أشبه بتلك التى سادت بلاط آل ساسان بحيث ينحنى الداخل على الخليفة أمامه، ويقبل الأرض بين يديه، وإذا قرب منه قبل طرف رداءه، وهذا شرف كبير لا يناله إلا المقربون. وزيادة فى تقوية صفته الدينية كما تلقب الخلفاء العباسيون بلقب "الإمام" تأكيداً لصفته الدينية.

إلا أن تحجبهم عن الناس جعلهم لا يؤمنون الناس فى الصلاة ولا يقيمون خطبة الجمعة مثلما كان يفعل الخلفاء الراشدون.

د - يستبدون بالحكم حتى عهد الرشيد ثم بدأوا يضعفون تجاه الأتراك

والفرس:

استبد الخلفاء العباسيون فى حكمهم حتى عهد الرشيد، ثم أخذ نفوذهم

يضعف تدريجياً نتيجة لازدياد نفوذ الأتراك. فأصبح خلفاء العصر العباسي الثاني مسلوبى السلطة ومحرومى النفوذ. حتى أنه غدا معظمهم ألعوبة فى أيدى قادة الأتراك وخير دليل إلى ما ذهبنا إليه فى حكمنا هو أن الخليفة المعتز كان لا يلتذ بالنوم ولا يخلع سلاحه لا فى الليل ولا فى النهار خوفاً من الأتراك وبخاصة "بغا الصغير" ورأى بعض الخلفاء أن يتملق إلى قاداتهم كما استنجد المستكفى ببني بويه، فأتى معز الدولة أحمد بن بويه إلى بغداد لمساعدته، لكن لم يمض وقت قصير حتى حجر على الخليفة وسمل عينيه فازدادت الخلافة العباسية ضعفاً فى عهدهم، كما أسرف بعض الخلفاء إلى قلق أمراء بني بويه بإضفاء الألقاب الضخمة الطنانة عليهم مثل "تاج الله" و"ضياء الملك" و"غياث الأمة" و"شاهنشاه". ثم سعى بنور بويه إلة تزويج بناتهم من بعض الخلفاء حتى تتحول الخلافة إلى أحفادهم.

وبقى الأمر كذلك عندما دخلت الخلافة العباسية فى ظل النفوذ السلجوقي إذ حل سيد محل آخر. بالرغم من أن السلاجقة لم يتخذوا من بغداد مركزاً لهم وإنما أقاموا فى إيران مكتفين بأن ينوب عنه فى مركز الخلافة أحد موظفيهم للإشراف على شؤون العراق وتدير أموره.

هـ - يعينون ولى عهدهم، ويأخذون له البيعة فى حياتهم؛

لم تكن الخلافة العباسية على أساس الشورى كما كانت أيام الخلفاء الراشدين. وهذا يعنى أن الخليفة العباسي كان يعين ولى عهده، ويأخذ له البيعة فى حياته من وجه الناس والأعيان وكبار القواد، وعن طريق الولاة فى الأقاليم.

وإذا ما فكر الخليفة فى تولية العهد أكثر من واحد من أبنائه، وجب عليه أن يرتب لهم تتابع توليهم الخلافة، مما أثار أحيانا كثيرة الفرقة بين الأخوة، وخير شاهد على ما ذكرناه المهدي وولاية العهد للهادي والرشيد ثم تولية الرشيد للأمين والمأمون.

٢ - الوزارة أيام العباسيين

أخذ العباسيون نظام الوزارة عن الفرس . وكان وزير للعباسيين أبو سلمة الخلال ، لكن معاملها لم تتحدد فى عهده . ولأن الدعوة العباسية قد قامت على أيدى الفرس وبمساعدهم . فمن الطبيعى أن يكون وزراء العصر العباسى الأول من الأعاجم ، مثل : البرامكة ، وبنو سهل . وعلى أيدى هؤلاء اكتسبت الوزارة شكلها النهائى فى أواخر العصر العباسى الأول . وكان الوزير فى أيام العباسيين :

- ساعد الخليفة الأيمن .

- نائب عنه فى حكم البلاد .

- يعين الولاية .

- يشرف على الضرائب .

- يجمع فى شخصه السلطتين المدنية والحربية .

- صاحب المشورة التى تسترشد بها الخليفة .

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول يتجنبون تسمية أنفسهم باسم "وزير" على الرغم من قيامهم بأعمال الوزراء ومهامهم ، فإليهم يرجع الفضل فى ضبط أمور الدولة ونشر لواء الأمن والعدل بين الرعية ، ومرد ذلك إلى تخوف الوزراء من الخلفاء بعد أن لقى البعض منهم حتفه على أيديهم . ولكن هذا لم يمنع الوزراء من الإقبال على اكتساب الألقاب المنسوبة إلى الدولة مثل : عماد الدولة ، وعز الدولة وركن الدولة .

وكانت الوزارة أيام العباسيين ضعيفة أمام قوة الخلافة ، وقوية كلما ضعفت الخلافة . لذا تطرق الفساد إلى منصب الوزارة فى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) لاتباعه سياسة خرقاء فى تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة فى عهده اثنا عشر وزيرا عزل بعضهم أكثر من مرة . وكان لضعف الوزراء فى ذلك

العصر وازدياد نفوذ القواد أن تضاعفت هيئة الوزارة فلم يبق للوزراء شىء من النفوذ. فاقترنت وظيفتهم على الحضور إلى دار الخلافة في أيام الركوب (المواكب) مرتدين السواد، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعارات الوزارة. وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء الذى هيمن على شؤون الخلافة والوزارة والدولة جميعا وبخاصة فى عصر البويهيين والسلاجقة. ومع هذا فقد كانت الوزارة أيام العباسيين وزارة تنفيذ ووزارة تفويض.

- وزارة التنفيذ:

يقتصر النظر فى وزارة التنفيذ على ما يراه الخليفة. ويكون الوزير فيها واسطة بين الخليفة والناس، يمضى ما يأمره به الخليفة من تعيين الولاة، وتجهيز الجيوش وقادتها، ويعرض عليه ما ورد من مهم، وما استنجد من حديث.

- وزارة التفويض:

أما وزارة التفويض، فيستوزر الخليفة فيها رجلا يفوض إليه تدبير الأمور برأيه وعلى اجتهاده. فيتولى الوزير كل شىء بسلطات واسعة، ويفوض فى الأمور الدولة والتصرف فى شؤونها دون الرجوع إلى الخليفة كما كان ليحيى البرمكى فى خلافة الرشيد.

وفى عهد بنى بويه بدءا من سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م. فقد اختفى الوزراء لأن هؤلاء حلوا محلهم. واستبدوا بأمور الخلافة، واطعنوا الوزراء الذين امتازوا بالكفاية والفضل أمثال: ابن العميد وزير ركن الدولة بـ بويه، والصاحب بن عماد وزير مؤيد الدولة ثم فخر الدولة وغيرهم، وصار يطلق على الوزير لقب "أمير الأمراء" حتى إذا تخلص السلاجقة من البويهيين منحوا الخلفاء مزيدا من السلطة والقوة.

الكتاب أيام العباسيين:

اتسعت الدولة العربية الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين وضمنت شعوبا وطوائف عديدة من الناس، فكان لابد لهذه الدولة من أن ينشأ فيها جهاز وظيفى يتولى أعمال الكتابة التى يوجهها الخليفة إلى الوزير أو القضاء والولاة فى الأقاليم وتسجيل الرسائل الواردة من الولاة والقضاة إلى الخلافة، وكذلك فى سائر الدواوين كانت هناك الحاجة إلى من يتولى الأعمال الكتابية فيها.

وفى العصر الأموى والعصر العباسى استمرت تلك الحاجة إلى مجموعة من الموظفين أو الكتاب للقيام بالأعمال الكتابية بخاصة فى العصر العباسى الأول بعدما تعددت الدواوين لمساعدة الوزير فى أعماله الواسعة، وللإشراف فى هذه الدواوين فاقضى طبقا لذلك أن يكون لكل وزير كاتب أو كتاب يساعده وأن يكون لكل وال من ولاة أقاليم ورجال رجال الدولة كتابا أو أكثر.

ويرأس جماعة الكتاب الوزير. وأحيانا كثيرة كان بعض الكتاب يتدرجون فى الرقى إلى أن يتولوا الوزارة معتمدين على كفايتهم الكتابية وبلاغة أقلامهم.

وتولى العمال الكتابية فى الخلافة العباسية الفرس، قبل الوزراء، لأن الفرس كانت لهم القدرة الفائقة فى الكتابة، بينما كان العرب يفخرون بالسيف لا بالقلم. لذا نجد كثيرا من الكتاب فى العصر العباسى يحذون حذو أجدادهم الفرس، حتى فى مظهرهم الخارجى. وكان لامتناك بعض الكتاب إلى ثقافة أوسع من ثقافة غيرهم، ودائرة معارفهم واسعة، ودرايتهم بأحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم كبيرة. هذا فضلا عن إجادتهم عملهم كان يتطلب دراية فى اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ والجغرافيا، إلى جوانب كثيرة قد تعرض فى مسائل للخليفة أو الوزير أو والى.

ولما كانت الأعمال الكتابية مهمة خطيرة يجب على من يتولاها أن يتحلى بأخلاق حميدة وثقافة واسعة ودقيقة، فقد تعددت الكتب التى ألقت لجماعة

الكتاب بالذات . فآلف ابن قتيبة كتابا اسمه "أدب الكاتب" أوضح فيه الكثير من ألوان المعرفة التي اعتقد (ابن قتيبة) أن الكتاب بحاجة إليها . كما آلف أبو بكر الصولي كتاب "أدب الكاتب" توسع فيه من شراء أمور كثيرة لم يعرض لها ابن قتيبة . ونصح "عبد الرحمن الكاتب" الكتاب فقال "فنافسوا معشر الكتاب في صفوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل أو الفرائض ، ثم العربية فإنها ثقافة ألسنتكم ، أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم . وراووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسعون إليه يهتمكم . ولا يضعفن نظركم في الحساب فإنه قوام كتاب الخراج منكم" .

وتنوع الكتاب تبعا للدواوين في ذلك العصر . فكان منهم كتاب الرسائل وكتاب الخراج وكتاب الجند وكتاب الشرطة وكتاب القاضي . وقد كان صاحب ديوان الرسائل الكاتب الأهم والأعلى شأنًا من غيره إذ كان عليه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية ، وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في صيغتها النهائية .

وكانت مهمة كاتب الرسائل تشبه وزارة الخارجية اليوم . فكان يتولى مكاتبة الملوك والأمراء عن الخليفة ، وبأسلوب شائق وبلغ . لذا روعى في الكاتب رصانة الأسلوب وسعة العلم . فضلا عن عراقيل الأصل . وأوجز ابن خلدون الصفات التي يجب توافرها في الكتاب عامة وكاتب الرسائل خاصة فقال : "واعلم أن صاحب هذه الخطة لابد من أن يعتبر من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، معرفة البلاغة . . فإنه معرض للنظر في أمور العلم لما يعرض في مجلس الملوك . ومقاصد من أمثال ذلك ، مع ما تدعوا إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل ، مع ما يضطر إليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها " .

٤ - الحجابة أيام العباسيين:

لم تعرف الحجابة ولا الحجاب أيام الخلفاء الراشدين لأنهم لم يمتنعوا عن مقابلة الناس أو مخاطبتهم مهما اختلفت مراتبهم، ولم يمنع من الدخول على الخلفاء أى إنسان. وما أن انتقل الحكم إلى الأمويين، اتخذ معاوية بن أبى سفيان وخلفاؤه من بعده الحجاب، وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس بعدما كثر المعارضون لحكمهم وبخاصة الخوارج والعلويين (شيعة الإمام على بن أبى طالب)، على أثر مقتل الإمام على ومحاولة قتل معاوية وعمرو بن العاص. وليس فقط من هذا القبيل، بل تلافيا لمنع ازدحام الناس على أبواب الخلفاء بعدما اتسعت رقعة الدولة وشملت طوائف وأجناس مختلفة من البشر، وشغلهم عن النظر فى أمور الدولة ومهامها. وهكذا صارت مهمة الحجاب الوقوف على باب الخليفة لإدخال الناس عليه، مراعين فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم.

والخلفاء العباسيون الذين احتجوا عن الناس لأجل إحاطة أنفسهم بهالة من القدسية والرغبة. لم يكن من الغريب على الرعية إذا ما بلغوا فى منعهم عن مقابلتهم إلا فى الأمور الهامة. وهذا ما حدا بابن خلدون إلى تسمية هذا المنع بالحجاب الثانى، وصار بين الناس وبين الخليفة داران: دار الخاصة، ودار العمة ويقابل كل طائفة فى مكان معين وفق ما يراه الحجاب.

ازداد نفوذ الحاجب مع الزمن وكذلك خطورة مهمته أيام العباسيين، ولم يمض وقت طويا حتى صار يستشار فى كثير من أمور الدولة بحكم قربه من الخليفة، الأمر الذى جعله يستبد بالنفوذ دون الوزير، حتى صار أصحاب الدواوين ملزمين بالرجوع إليه فى أكثر أمور الدولة. وإمعانا فى تدخله وتحكمه حتم على أصحاب الدواوين ألا يفصلوا فى الأعمال إلا بعد موافقته. فأدت مداخلات الحجاب إلى استشارة الوزراء ودفعهم إلى الدس فى حق الحجاب عند الخلفاء.

ثانياً: النظام الإداري:

بدأت الدولة العباسية منذ نشأتها الأولى بتطبيق السياسة المركزية. فكان الولاة أقل نفوذاً وأضيق سلطاناً منهم في عهد اتباع سياسة اللامركزية أو الإقليمية بدءاً من خلافة هارون الرشيد إذ صار الولاة فيها أكثر نفوذاً وحرية. وقد قسم الماوردي في كتابه "الأحكام السلطانية" الإمارة على الأقاليم إلى ثلاثة أنواع:

أ - إمارة استكفاء:

يفوض الخليفة فيها إلى والي إمارة الإقليم، على أن تحدد صلاحياته بتدبير الجيش، والنظر في الأحكام وتقليد القضاة وجباية الخراج، وحماية الدين، والذب عن الحرم، وإقامة الحدود في حق الله وحقوق الأديمين، والإمامة في أيام الجمع والجماعات، وتسيير الحجيج، وإذا كان الإقليم ثغراً أضيف إلى عمل والي جهاد من يله من الأعداء.

ب - إمارة استيلاء:

وهي أن يستولي أحد الأمراء قسراً على ولاية، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها، ويفوض إليه تدبيرها وسياستها.

ج - إمارة خاصة:

تقتصر صلاحيات والي في الإمارة الخاصة على تدبير الجيش وسياسة الرعية والذب عن الحرم وعلى إلا تشمل صلاحياته التعرض للقضاء، والأحكام وجباية الخراج.

١ - والي:

كان العباسيون يكلفون بعض أفراد البيت العباسي وأكابر القواد بالولايات الإسلامية البعيدة، لأن ولاية العصر العباسي الأول كانوا رعاة يمسكون خيوط الدعوة ويتصلون بالنقباء. وكان الإقبال على تولي مركزا الولاية كبيراً، وكثيراً ما

كان الوالى على غرار البرامكة، يبالغ فى استغلال وظيفته وما دام كذلك، فقد تعرض الولاة للعزل ومصادرة أموالهم وتركها فى بيت مال، سماه الخليفة المنصور "بيت المظالم" بعدما يكتب عليها أسماء أصحابها. فقد قال أبو جعفر المنصور لأبنيه المهدي قد هيأت لك شيئا، فإذا مت فادفع من أخذت ماله فارده عليه فإن نجا تستحمد بذلك إليهم والى العامة. ولما ضعفت الدولة العباسية، صار الولاة يؤثرون البقاء فى بغداد أو فى سامراء، وينيبون عنهم من يتولى حكم الولايات باسمهم حتى إذا ما لمس بعض الولاة أو نوابهم ضعف الدولة جنحوا إلى الاستقلال والأدلة كثيرة فى قيام الدول المستقلة فى المشرق والمغرب، وفى مصر والشام.

كان صاحب الخراج الساعد الأيمن للوالى، وعمله يقتصر على جمع الخراج وإرساله إلى بيت المال فى العاصمة والإنفاق على ما تطلبه الدولة من مشاريع إصلاحية حتى إذا اجتمعت وظيفتا الوالى وصاحب الخراج (العامل) إلى شخص واحد شكل خطرا على الخلافة.

وكان يساعد الوالى وصاحب الخراج (عامل الخراج) فى المدن عدد من الموظفين أهمهم: القاضى، والبندار (مهمته المطالبة بالخراج) وصاحب الجند، وصاحب البريد، ومتولى الضياع السلطانية، وصاحب المعونة (مهمته مساعدة صاحب الجند). يتم تعيين هؤلاء الموظفين الوزير، على انه جرت العادة، يعزلوا بعزله، ويعودون بعودة الوزير ثانية، وهذا ما تسبب فى إشاعة الفوضى والاضطراب فى الولايات العباسية، وبخاصة فى المصريين العباسيين: الثالث والرابع.

ولما كان منصب الوالى المناصب الخطيرة، يعين من أبناء أمراء الجند الذين فيهم الصفات الآتية:

١ - الحزم فى التقرير.

- ٢ - العلم الذى يدرأ عن التهور والتغريز فى الأشياء .
- ٣ - الشجاعة فى الثواب والعقاب والإحسان .
- ٤ - الصرامة بالنسبة لأهل الزيغ والعدوان ومواجهة الخطاء .

٢ - الدواوين:

لم يكن الخليفة العباسى، فى دولة اتسعت رقعتها إلى ما وصلت إليه فى الأيام الخليفة الرشيد، وأن تستقر البلاد وتستقيم الأمور بعد أن ازدادت سلطاته وتنوعت أعماله وكثرت مشاكله الداخلية والخارجية، من أن يوزع الأعمال. ومن هنا جاءت الحاجة إلى إنشاء عدد من الدواوين. التى قامت بعمل نفسها التى تقوم بها الوزارات فى عصرنا الحاضر. ومن أهم هذه الدواوين:

أ - ديوان الجيش .

ب - ديوان النفقات وتدخل ضمن صلاحياته حاجات دار الخلافة .

ج - ديوان بيت المال الذى يشرف على ما يرد من أموال وما يخرج من نفقات .

د - ديوان الرسائل (الإنشاء) .

هـ - ديوان البريد .

ز - ديوان الخاتم .

ح - ديوان الفض، وفيه تفضل كتب الواردة من الأمراء والأعمال إلى الخليفة .

ط - ديوان الأكره: ويشرف على بناء وإصلاح الترع والجسور وشؤون الرى .

وجعل لكم ولاية من ولايات الدولة العباسية فى بداءة الأمر ديوان كبير ببغداد يشرف على شؤونها، كما كان الديوان مقسما إلى قسمين: الأول ويسمى

الأصل، تسن فيه الضرائب وتحمل إلى بيت المال. والثاني، الزمام أو ديوان المال واستمر هذا النظام إلى أن تولى الخلافة المعتضد سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض، وكون منها ديوانا واحدا أطلق عليه اسم "ديوان الدار الكبير" ثم قسمه إلى ثلاثة أقسام: ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد أى العراق وأسند الأصل إلى شخص واحد، والزمام لشخص آخر، وأنط مصالح غير المسلمين بديوان خاص أطلق عليه "ديوان الجهبذة".

- ديوان البريد:

إن أول من وضع نظام البريد فى الإسلام ومعاوية بن أبى سفيان الذى أخذه عن البيزنطيين. وكان لديوان البريد خاصة مكانة فريدة فى العصر العباسى، اهتم الخلفاء العباسيون به واعتمدوا عليه اعتمادا كبيرا فى إدارة شؤون دولتهم. وقيل عن الخليفة أبى جعفر المنصور إنه كان يقول. "ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر، لا يكون على بابى أعف منهم. فقليل له يا أمير المؤمنين؟ قال هم أركان الملك، لا يصلح الملك إلا بهم، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم إن نقصت واحدة تداعى. أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم الآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث، صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فإنى عن ظلمها غنى. والرابع. . . ثم عضد على أصابعه السبابة ثلاث مرات ويقول فى كل مرة آه آه. . . قيل له: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب إلا بخبر هؤلاء على الصحة".

يبين لنا هذا القول مدى خطورة مهمة صاحب البريد الذى كان عين الخليفة الساهرة على الأصدقاء والأعداء جميعا، يراقب العمال والولاة ويتجسس على الأعداء ويبحث بأخبار هؤلاء جميعا إلى الخليفة. وقد أوجز قدامة بن جعفر الشروط الواجب توافرها فى صاحب البريد قائلا: "يجب أن يكون ثقة، أما فى نفسه أو عند الخليفة القائم بالأمر فى وقته، لأن هذا الديوان ليس فيه من العمل ما يحتاج معه إلى الكافى المتصفح، وإنما يحتاج إلى الثقة المتحفظ" كما ذكر

القلقشندى، إن من صفات البريدى " أن يكون قديرا على تنميق الكلام، وتحسين العبارة. صحيح الفكرة والمزاج، ذا بيان وعارضة ولين. صدوقا، بريئا من الطمع"

ولم تقتصر مهمة عمال البريد فى الدولة العباسية على موافاة الخليفة كل ما يجرى من أعمال فى دولته، وما يقوم به الولاة وما يقضى به القضاة، وما يرد إلى بيت المال من أموال. وإنما كانوا يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وغيرها. وفى أيام أبى جعفر المنصور كان عمال البريد يوافونه بما يجرى مرتين فى اليوم، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث نهارا، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى ليلا. وبهذا كان الخليفة على علم بكل ما يجرى فى الولايات الإسلامية، فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم ويعيد السعر إلى حالته الأولى إذا غلا، ويعاقب العامل إذا قصر أو أخطأ.

وتسهيلا لمهمة عمال البريد، وحتى تصل الأخبار بأقصى سرعة إلى الخلفاء فقد ربط العباسيون بين سائر الولايات العباسية الإسلامية والعاصمة بغداد بشبكة من الطرقات، وأنشأوا عليها المحطات للاستراحة، ومن أهم المسالك فى دولة العباسية:

أ - طرق المغرب: بغداد - الشام - مصر - القيروان فى المغرب.

ب - طريق الشام: بغداد - الأنبار - الشام.

ج - طريق المشرق: بغداد - مرو - وبخارى - وجيجون وفرغانة. . . إلخ.

واستعملوا فى نقل البريد البغال والخيول، ثم استخدموا بعد ذلك الجمازات، أى العربات التى تجرها الخيول السريعة، وفى القرن الرابع الهجرى، استخدم عمال البريد الحمام الزاجل فى نقل الرسائل بعدما شاع هذا النوع من البريد ولا سيما عند الفرق الباطنية بخاصة منها: الفاطميون وكانت المسافات عندهم تقاس بالأميال

فى البلاد الواقعة غربى نهر الفرات وبالفراسخ فى بلاد الواقعة شرقى هذا النهر .
هذا ويفترض فى البريدى أن يكون ا معرفة تامة بالطرق ووعورتها فيتجنب سلوك
الجلال والوهاد ومجارى الأنهار فىؤدى مهمته بأسرع وقت على أحسن وجه .

وكان البريد موضع اهتمام بنى بويه، حتى بلغ فى عهدهم مبلغا عظيما من
الدقة والسرعة، وبخاصة عندما أخذت الدولة إجراءات قاسية بحق كل من يتوانى
فى أداء واجبه من موظفى البريد وادخل معز الدولة البويه "نظام السعادة" - كان
يقال لهم أيضا الفيوج - وهم جماعة من موظفى البريد يتخصصون فى نقل البريد
السريع من مكان إلى آخر. وقد اخلص هؤلاء إلى معز الدولة. وأقبل أولاد
الفقراء على الالتحاق بهذا العمل والتدرب عليه لما كان يوزع على أفرادهم من أرزاق
وجرايات كثيرة.

وكان صاحب ديوان البريد يشرف على البريديين والبراجين وشؤون أرزاقهم
ومراقبة المراسلات الصادرة والواردة من جميع الأقاليم، ثم فرزها لتصل إلى
أصحابها تولى كتب أصحاب البريد فى جميع النواحي على الخليفة.

٣ - الأمن:

أنيط حفظ الأمن فى جميع أنحاء الدولة العباسية بجهاز الشرطة. لذا كان
يختار صاحب الشرطة من علية القوم ومن أهل العصية والقوة. يتولى صاحب
الشرطة رئاسة الجند الذين يساعدون الوالى فى تثبيت الأمن وحفظ النظام والقبض
على الجناة والمفسدين. وقد اتخذت الدولة العباسية فى كل مدينة من المدن جماعة
من الجند برئاسة من ينييه صاحب الشرطة الذى يتخذ من العاصمة أو مركز الولاية
مقرا له. وقام رجال الشرطة بمهمة حفظ الأمن وإقرار النظام وتنفيذ أحكام
القضاة، وبالسهر ليلا على راحة الناس (العسس) بإشراف رؤسائهم الضباط خير
قيام. ولم تبخل الدولة على هؤلاء جميعا بالمرتبات الكبيرة منعا للغش والبرطيل
وحفظا للقيام بواجباتهم على أكمل وجه. وكانت الشرطة تتبع القاضى فى بادئ
الأمر، يعمل صاحبها على إقامة الحدود بالقبض على المجرمين وتنفيذ أحكام

القضاة فيهم. لكنها لم تلبث أن انفصلت عن القضاء، فاستقل صاحب الشرطة بالنظر في الجرائم. وكان تعيين صاحب الشرطة يتم من قبل والي في الولاية وليس الخليفة، وكذلك عزله عنها.

ثالثا: النظام الحربي؛

١ - الجيش؛

اعتمدت الدولة العباسية على جيش قوى، كثير العدد، مجهز بمختلف أنواع العدد ليكون القادر على رد أعدائها في الخارج، والقضاء على الثوار والخارجين عليها في الداخل. وبينما كان الجيش في عهد الرسول الكريم، وعهد الخلفاء الراشدين والأمويين يتألف من العنصر العربي، نرى بأن العباسيين يعتمدون على الفرص في إقامة دولتهم، وبالتالي على العنصر الفارسي في تكوين الجيش العباسي خاصة بعدما كثرت المنازعات العنصرية التي كانت تشعل نارها بين الجند العربي من حين إلى آخر، ولاسيما بين اليمانية والمضرية. ولما تولى الخلافة المعتصم سنة ٢١٨هـ. اعتمد على الأتراك، وأثرهم على الفرص والعرب جميعا، فزاد عدد الأتراك في عهده على السبعين ألفا. فاستاء القواد وخاص العرب منهم، من هذه السياسة بعد أن محا أسمائهم من ديوان العطاء، حتى اضطرت المعتصم على بناء سامراء لتكون مركزا له ولجيشه الجديد. ثم لم يلبس أن ازداد نفوذ العنصر التركي زيادة كبيرة أصبح معها الخلفاء ألعوبة في أيدي القادة الترك، مما أضاع هبة الخلافة وقد تحول الجنود الأتراك عند ذلك إلى عنصر لإثارة الفوضى والقلاقل، وخاصة إذا تأخر رواتبهم، المر الذي جعل بعض الخلفاء مثل المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥هـ) يعتمد المغاربة والفراعنة دون الأتراك مما أدى إلى مقتله على أيدي هؤلاء الآخرين انتقاما.

١ - أقسامه؛

انقسم الجيش العباسي إلى قسمين: أولا: الفرسان أو الحرية وهم الذين

كانوا يتسلحون بالرماح وهم من جند العرب. وثانيا: المشاة وهم من الفرس ولاسيما الخراسانيين بسبب مساندة هؤلاء للعباسيين فى إقامة دولتهم.

وقسم الجيش العباسى أيضا إلى فرق، كل فرقة من عشرة آلاف جندى بأمره أمير، وتتكون الفرقة من كتائب كل كتيبة من ألف جندى بقيادة قائد، وتنقسم الكتيبة إلى وحدات، كل وحدة من مائة جندى برئاسة نقيب، ثم تنقسم الوحدة إلى فصائل كل فصيلة من عشرة جنود عليها عريف. وأثناء القتال كان الجيش العباسى يتألف من تشكيل على الشكل الآتى: القلب، والميمنة، والميسرة، والطليعة والساقة. وتألقت من الجند الأتراك على توالى الأيام الفرق التى كانت تنسب كل منها إلى صاحبها كالساجنة إلى أبى الساج، والصلاحية إلى صلاح الدين.

والأسدية النظامية وأمثالهما. وكثيرا ما كانت الحروب تنشب بين هذه الفرق تنازعا على النفوذ أو على المال.

ب - صلاحية الجندى للقتال؛

وكان للجيش العباسى ديوان خاص به، يتألف من مجلسين: مجلس التقرير تسجل فيه رواتب الجند بعد تقديرها، وأوقات دفعها إليهم. ومجلس المقابلة الذى تتم فيه عملية الإشراف على سجلات الجند مراجعة أسمائهم ونحو ذلك. أما صلاحية الجند للخدمة العسكرية، فكانت تخضع لاختبار دقيق يشرف عليه جماعة من كبار القواد، ويروى هلال بن الصابئ كيفية إجراء هذا الاختبار فى عهد الخليفة المعتضد بقوله: كان يجلس الخليفة والقواد والغلمان بين يديه فى الميدان "ويتقدم القائد ومعه جريدة بأسماء أصحابه وأرزاقهم، فيأخذها خادم منه، ويصعد بها إلى المعتضد بالله، ويدعوا عبيد الله بن سليمان بواحد واحد ممن فيها، فيدخل الميدان ويمتحن على الرجاى (الهدف) فإن كان يرمى رميا جيدا وهو متمكن من نفسه ومستقر فى سرجه ومصيب أو مقارب فى رميه، علم على اسمه (ج) وهى علامة جيد ومن كان دون ذلك علم عليه اسمه (ط) وعى علامة المتوسط، ومن كان

متخلفا لا يحسن أن يركب فرسه أو يرمى هدفه، علم على اسمه (د) وهى علامة الدون. "

ج - سلاحه:

يتألف سلاح الجيش العباسى من الرماح والسيوف والحراب والتروس والنشاب إلخ. . . ويلبس أفراد الخوذ الحديدية لتقى رؤوسهم، والدروع لتقى صدورهم. كما كانت فرقة من فرق الجيش فضيلة لقذف النفط، اشتهر أفرادها بلقب "النفاطين" الذين يرتدون ملابس لا يؤثر فيها النيران عند اقتحام الحصون المشتعلة، وفصيصة أخرى المعماريين الذين يحملون المعاول إلى جانب التروس والسيوف. وأخيرا كان لدى العباسيين فرقة المنجنقيين أى الذين كانوا يستخدمون المنجنق الرومى بكتل الحجارة على حصون الأعداء وتجمعاتهم، وهم أشبه برجال المدفعية اليوم.

ولم تغرب عن تفكير العباسيين أعمال الجاسوسية فى الجيش. فاستخدموا لذلك الرجال والنساء الذين غالبا ما كانوا يرحلون إلى بلاد الأعداء - الدولة البيزنطية - متنكرين فى أزياء التجار والأطباء، من أجل جمع أخبار العدو ونقلها.

ثم أقاموا جيوش البرية والبحرية التى ربطت على حدود الدولة من غارات الأعداء وهجماتهم على حدود الدولة العباسية، كما أقاموا الثغور العباسية على مختلف الحدود مع الروم البيزنطيين.

واستمرت غزوات العباسيين ولاسيما منها الصائفة، لبلاد الروم والبيزنطيين، ردا على إغاراتهم وذودوا عن ثغورهم.

٢ - الأسطول البحرى:

اهتمت الدولة العباسية بأمر إنشاء أسطول بحرى قوى فى البحر الأبيض المتوسط للدفاع عن سواحلها الطويلة ضد هجمات الروم البيزنطيين على الثغور

الإسلامية فى البلاد الشامىة أو المصرىة؁ وللغزو أحياناً كثرىة. وقد استغل العباسيون خىرة أهل الثغور الشامىة والمصرىة فى إنشاء السفن وركوب البحر خاصة بعد أن نجحوا فى تقديم تلك الخبرات للعرب والعمل على إنشاء أسطول قوى فى العصر الأموى تمكن الأمويين بفضاه من غزو القسطنطينىة نفسها.

واستمرت العناية بالأسطول البحرى طوال الأعصر العباسىة لكن انشغال الخلفاء بالقضاء على الثورات الداخلىة فى البلاد؁ والسىطرة الفارسىة ثم البوىهىة التركىة على مركز الخلافة وتحكمهم بالخلفاء؁ أضعف السهر على تقوىة الأسطول وبالتالى حد من أمر غزوه لبلاد الروم البىزنطىين. فشعر الروم بهذا الضعف وعملوا بمشاكل الخلافة وما تواجهه من تدخلات؁ فأغاروا سنة ٣٣٨هـ - فى عهد الخلىفة المتوكل بالله - على مصر بحرىا؁ واقتحموا دمياط فى نحو ثلاثمائة مركب؁ وعاثوا فىها فسادا؁ إذ أحرقوا دورها وجامعها الكبىر وقتلوا كثرىا من رجالها؁ وسبوا العدىد من نساءها؁ إضافة إلى الغنائم الكثرىة التى حملوها معهم إلى بلادهم.

على أثر هذا الهجوم؁ اهتم "عنىسة بن إسحق والى مصر (٢٣٨ - ٢٤٢هـ)؁ بتحصىن الموانى؁ والعناية بصناعة السفن لأجل الدفاع على الأقل. كما ظلت صناعة السفن موضع عناية الولاة الذىن جاؤوا بعده إلى مصر حتى قامت الدولة الطولونىة وأنشأ أحمد بن طولون أسطوله البحرى الكبىر (٣٣) ثم تعززت هذه الصناعة البحرىة الحربىة عهد الدولة الفاطمىة بعدما قام المعز لىن الله بإنشاء دار لصناعة السفن "بالمقدس" بنى فىها ستمائة مركب (شوانى: شانىة).

رابعاً: النظام القضائى:

انتشرت المذاهب الأربعة - الحنفى؁ المالكى؁ الشافعى؁ الحنبلى؁ فى البلاد الإسلامىة منذ قىام الدولة العباسىة؁ ولم يبق من مجال للاجتهاد؁ فأصبح القاضى يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب. وفى العراق كان القاضى يفصل فى الأحكام وفق مذهب "أبى حنىفة"؁ وفى الشام والمغرب وفق مذهب "مالك"؁

وفى مصر وفق المذهب "الشافعى". أما إذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع بإقليم من أقاليم الدولة العباسية، كان القاضى ينيب عنه من يحكم بمذهب المتخاصمين.

١ - القضاء والقضاء:

أ - قاضى القضاة:

كان قاضى القضاة يختار من قبل الخلفاء العباسيين ومن بين المشهود لهم بخوف الله، وصدقهم ونزاهتهم وعلمهم الواسع فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والفقهاء الإسلامى. وكان على قاضى القضاة أن يقيم فى حاضرة الدولة، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأقاليم والأمصار. وأول من تلقب بلقب "قاضى القضاة" أبو يوسف صاحب كتاب الخراج فى عهد هارون الرشيد. كما اعتذر، عن قبول تولى منصب قاضى القضاة فى عهد أبى جعفر المنصور، أبو حنيفة النعمان، وقال له "اتق الله، ولا ترع فى أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون الغضب"؟ وكذلك اعتذر أبو بكر الرازى (المتوفى سنة ٣٧٠هـ) عن قبول منصب قاضى القضاة بعد أن طلب منه ذلك مرارا.

ب - زى القضاة:

كان القضاة فى الأعصر العباسية يرتدون السواد شعار العباسيين. كما يعمم القاضى بعمامة سوداء فوق قلنسوة طويلة. وآثر القضاة فى القرن الثالث للهجرة القلنسوة السوداء على غيرها، حتى أنها أصبحت تميز القضاة عن غيرهم بصفة خاصة وتلبس مع الطيلسان.

ج - مكان انعقاد الجلسات:

كان القضاة يجلسون فى أول الأمر فى الجامع، حتى نادى البعض بأن هذا الوضع يسئ إلى حرمة بيوت الله، نظرا لما يكون بين المتقاضيين من خلافات

يصحبها ارتفاع أصواتهم لهذا منع الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) القضاة من الجلوس فى المساجد، الأمر الذى جعل بعض القضاة يفصلون بين الناس فى دورهم بينما كان لقاضى القضاة فى بغداد ديوان يعرف بديوان قاضى القضاة.

د - أعوان القضاة:

اتسعت سلطة القاضى فى العصر العباسى الأول، مع اتساع دائرة القضاء، وتنوعت اختصاصاته، وتعددت قضاياها، بعد أن كان عمله مقصورا على الفصل بين الخصوم، وصار يفصل فى الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء. فبات والحالة هذه لكل ولاية من ولايات الدولة العباسية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، ينظر كل منهم فيما ينشأ من منازعات بين من يدفعون بعقائد مذهبه.

ترتب على ازدياد أعمال القاضى أن ازداد أعوانه، وهم:

الكتاب:

هم الذين يختارهم القضاة لمساعدتهم فى إنجاز أعمالهم فينظمون جلسات القضاة ويدونون الأحكام ويكتبونها، وقد ينبون عن القضاة إذا مرضوا. وقد اتخذ بعض القضاة إدخال نظام السجلات وجعلها تامة وافية فدون فيها الوصايا والديون.

الشهود:

هم الذين كانوا ملازمين للقضاة، فيروى الكندى أن القاضى إذا شهد عنده أحد معروف بالسلامة، قبل القاضى شهادته. وإذا كان غير معروف بها أوقف. وإذا كان الشاهد مجهولا لا يعرف، سئل عنه جيرانه، فما ذكروه به من خير أو شر، عمل به.

انتشر الفساد وعمت الرشوة القضاء والقضاة بعدما ضعفت الدولة العباسية، فعرف بعض القضاة الرشوة وشرب الخمر وسماع المغنيات. وأدت هذه الأوضاع

إلى أن صار بعض القضاة المرشحين لمنصب قاضى القضاة يتعهدون بتقديم مبلغ من المال يؤدونه فى كل سنة. وتجاسر ابن أبى الشوارب بأن: " شرط على نفسه أن يحمل فى كل سنة إلى خزانة معز الدولة مائتى ألف درهم، وكتب بذلك سجلاً ".

لكن الخليفة المطيع العباسى (٣٣٤ - ٣٦٣هـ) لم يوافق على تقليد هذا القاضى وأمر بمنع دخوله عليه. ويذكر ابن الأثير عن ابن أبى الشوارب " وهو أول من ضمن من القضاة، وكان ذلك أيام معز الدولة "، ولم يسمع بذلك قبله، فلم يأذن له الخليفة المطيع لله الدخول عليه، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء ثم ضمنت بعده الحسبة والشرطة ببغداد. . . . " .

٢ - المظالم:

كان للمظالم ديوان خاص عرف بديوان المظالم، يشبه هيئة قضائية عالية، أو ما يعرف اليوم بمحكمة الاستئناف. يسمى هذا الديوان "صاحب المظالم". إلا أن سلطته أعلى بكثير من سلطة القاضى. ويعرف ابن خلدون وظيفة صاحب المظالم بأنها: "هى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفه القضاء، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة، تقمع المظالم من الخصمين وتزجر المتعدى، وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ".

وتولى بعض الخلفاء بأنفسهم النظر فى المظالم. فقد ذكر المسعودى أن الخليفة المهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦) قد بنى قبة لها أربعة أبواب كان يجلس فيها، سماها "قبة المظالم" جلس فيها للعام والخاص. وسواء انعقدت محكمة المظالم برئاسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عنهما، فعلى صاحب المظالم هذا أن يعين يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى. أما إذا انفرد بالمظالم فقط فإنه ينظر طوال الأسبوع.

وفرق الماوردى فى كتابه "الأحكام السلطانية" بين نظر المظالم ونظر القضاء

منها: أن الناظر فى المظالم له من فضل الهيئة وقوة اليد ما ليس لناظر القضاء مما يكفى الخصوم عن التجاحد ويمنع الظلمة من التغالب. إضافة إلى أن ناظر المظالم يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد ما يصل به إلى معرفة الحق من البطل، وقد حدد الماوردى اختصاصات صاحب المظالم بـ:

١ - النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذا انحرفوا عن طرق العدل والإنصاف، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جميع الضرائب.

٢ - النظر فى تظلم المرتزقة إذا انقضت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم.

٣ - تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام.

٤ - مراعاة إقامة العبادات كاللحج والأعياد، والجمع والجهاد.....

وقد تطور مع الوقت اختصاص محكمة المظالم، فلم تنظر فى قضايا الأفراد فقط بل تعداها إلى النظر والفصل فى شكاوى الشعب عامة. على أن محكمة المظالم كانت تعقد غالباً فى المساجد، ويحاط بصاحب المظالم خمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم وهم:

أ - الحماية والأعوان:

وتقتصر مهمتهم على حفظ الأمن والنظام فى الجلسة وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء.

ب - الحكام:

ويقصر عملهم بالإحاطة بما يصدر من أحكام لرد الحقوق إلى أصحابها، والعلم بما يجرى بين الخصوم، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين.

ج - الفقهاء:

كان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من مسائل شرعية.

د - الكتاب:

يقوم الكتاب بتدوين أقوال الخصوم. وإثبات مالهم وما عليهم من الحقوق.

هـ - الشهود:

يهتم الشهود بإثبات ما يعرفونه عن الخصوم. والشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل.

٣ - الحسبة والمحاسب:

كان عمل المحاسب يقتصر على النظر بالنظام والآداب العامة التى تتطلب سرعة البث بها، ومن أهم مهماته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على الآداب والفضيلة والأمانة، ومراعاة أحكام الشرع، والإشراف على نظام الأسواق، والمحافظة على حق التراجع عن طريق العامة عند البناء، حتى لا يعوق ذلك نظام المرور، والوفاء فى الديون، والكشف على الموازين والمكايل منعاً للتطفيف، ومنع الغش والفساد فى بيع الأطعمة للناس، ومن التعدى على حدود الجيران. . . .

ونظام الحسبة فى الإسلام كان من وضع الخليفة عمر بن الخطاب، الذى كان يقوم بعمل المحاسب بنفسه فى الأسواق والطرقات. ولكن لفظ الحسبة نفسه لم يستعمل إلا فى عهد الخليفة المهدي العباسى (١٥٨ - ١٦٩هـ). وكان المحاسب يباشر عمله ويفرض العقوبة فى الحال، فقد شوهد الخليفة عمر بن الخطاب يضرب جمالا ويقول له: "حملت جملك ما لا يطيق". وهذا يدل على الفرق بين عمل القاضى وعمل المحاسب، فالقاضى يسمع أقوال المتقاضين والشهود ويدرس القضية ليفصل فيها، بينما المحاسب يرى المخالفة ويوقع العقوبة فى الحال. وهذا معناه الشدة والسرعة فى العمل. وكثيرا ما أسندت الحسبة والقضاء إلى رجل واحد، بالرغم من الفارق بينهما.

الحياة الاقتصادية

نادى العباسيون بالمساواة والإصلاح والقضاء على الفساد الذى استشرى فى العصر الأموى. وحتى يشعر الناس بأن ما نادى به العباسيون حقيقة قائمة فعلا وليس كلاما بكلام أطلق فى موجة الحماس من اجل الوصول إلى الحكم لا أكثر. بدأ الخلفاء العباسيون الأوائل - وبخاصة أبو جعفر المنصور - فى تنفيذ سياسة الإصلاح الاقتصادى بطريقة فعالة، لاسيما منها الإصلاحات الخاصة بالخراج وتنظيم جمعة بأسلوب عادل، وتخفيف الأعباء الملقاة على كواهل الفلاحين، مع رعاية شئون الزراعة والرى، والتجارة وتأمين الطريق، والصناعة وتأمين وتحرير الحرفيين من القيود التى طالما رزحوا تحتها. فأدت هذه الإصلاحات إلى رخاء اقتصادى لا مثيل له فى تاريخ الأمم. ولم تمضى سنوات قليلة حتى صار الخليفة العباسى ينعم بالثروة التى أخذت تتكدس فى خزائنه من مختلف أنحاء تلك الدولة الواسعة الأطراف. كما صار مجتمع بغداد الذى يحيط بالخليفة يعيش الرخاء الاقتصادى ذاته فى الثراء والمال. وقيل أن هارون الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى الغمامة المارة ويقول: "اذهبي حيث شئت - يأتني خراجك...".

أولا: النظام المالى:

عملت الدولة العباسية منذ البداية على تحقيق التوازن فى السياسة المالية بين الإيرادات والمدفوعات، فقسمت الميزانية العامة إلى قسمين: قسم الاستخراج ويعنى الإيرادات (المدخول)، وقسم النفقات ويعنى المصروفات (المدفوعات) فهى لذلك حرصت منذ نشأتها على إنشاء "بيت المال" ليقوم على صيانة أموال المسلمين وحفظها والإنفاق منها على وجوه الإنفاق السليمة. مما جعل بيت المال أشبه بوزارة الخزانة أو المالية فى عصرنا الحاضر.

١ - الاستخراج أو الإيرادات:

شكلت: الخراج والجزية والزكاة والفقء والغنيمه والعاشور أهم موارد بيت المال فى الدولة العباسية .

أ - الخراج:

أرهق الأمويين رعاياهم بما فرضوه عليهم من ضرائب، بعد أن خرجوا عن القواعد التى صاروا عليها الخلفاء الراشدون، متبعين نظاما قاسيا فى جميع الأموال، حتى إذا ما وجدوا أى إهمال لدى الجباه وموظفى الخراج أجروا تحقيقا دقيقا معهم أثناء الوظيفة، وعند اعتزالهم الخدمة أيضا.

هذه السياسة أشعرت الناس بثقل العبئ الملقى على عواتقهم، فاستبشر كثيرون خيرا بقيام الخلافة العباسية أملا فى الخلاص وتحسين الأوضاع. فكان أن أخذ العباسيون يعملون على تعديل هذه الأوضاع. وما أن سيطروا على خراسان حتى عمل خالد بن برمك، صاحب الخراش فى البلاد التى يفتحها الجيش العباسى على تقسيط الخراج من الناس، إحساسا منه بما كانوا يعانونه من ظلم فادح وما تحملوا من أعباء جسام.

ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة وضع نظاما صارما لمراقبة عمال الخراش وردعهم ومعاقبتهم إذا تعسفوا فى جمعهم الخراش. واعتنى المنصور بتنظيم ديوان الخراش مخصصا له مكانا فى بغداد على مقربة منه، محتفظا فيه بسجلات يرجع إليها فى تقديم قيمة الخراش، مراعى فىمن يتولى وظائفه من الموظفين الأمانة والدقة والتفقه فى أمور الدين. على أن أهم إصلاح أدخله الخليفة المنصور هو طريقة جباية الخراج، فالخراج الذى كان يؤخذ نقدا على مساحة الأرض سواء زرعت أم لم تزرع، وضع المنصور نظام المقاسمة الذى يقضى بأن يدفع الزراع جزءا من غلة الأرض ويبقى له ما يكفيه، أما المساحة التى لا تزرع فلا يدفع عنها.

وعلى أيام المهدي العباسى طبق "نظام المقاسمة على كثير من البلاد الإسلامية

وفقا لنسب معينة دون اعتبار بمساحة الأرض، فمثلا: بلغت نسبة المقاسمة النصف (٢/١) على الأراضي التي تروى بالجر (سيحا)، وثلث المحصول على الأراضي التي تسقى بالآلات (بالرش). وقد طبق هذا النظام - نظام المقاسمة - على الغلات الزراعية فقط، أما الأشجار والكروم فبقيتا على نظام المساحة، لكن روعي في ذلك الخراج حسب بعدها أو قربها من الأسواق.

واستمر العمل بنظام المقاسمة في جمع الخراج لأنه حقق دخلا ثابتا للدولة واطمئنانا للمزارعين بتجنيهم الأزمات مع استقرار الأمن. لكن هذا لم يمنع الخليفة هارون الرشيد عن مواصلته سياسة الإصلاح الضريبي، فأمر بإلغاء ضريبة العشر التي كانت تجبى من أهل العراق بالإضافة إلى نسبة النصف المقررة بحكم "نظام المقاسمة". وعهد إلى القاضي أبي يوسف بدراسة نظام الخراج ووضع الحلول المناسبة. فآلف أبو يوسف "كتاب الخراج" الذي خير كتاب ألف في موضوعه.

نصح أبو يوسف، في كتابه "الخراج" الرشيد بمزيد من الرأفة مع الفلاحين. فعدلت نسبة المقاسمة التي وضعت في أيام الخليفة المهدي بحيث أصبحت خمسين (٥/٢) على الأرض التي تروى بالجر (سيحا)، وثلاثة أعشار (٣٠/١٠) على الأرض التي تروى بالدوالي، وجمع الثلث من المساحات المغروسة بالنخل والكرم بدلا من تقدير خراجها طبقا لمساحتها كما ألغى الرشيد المبالغ المتأخرة على المزارعين والتي عرفت "بالبقايا" وأوجب الرأفة في جمعها حتى لا يلحق بالفلاحين أي غبن.

واستمر النظام المالي في العصر العباسي الثاني على درجة كبيرة من الدقة حتى كان لكل ولاية ديوان للخراج يرتبط بديوان الخراج الرئيسي في بغداد أو سامراء واهتم الخلفاء بمواعيد جمع الخراج، على أن مواعيد جمع الخراج، كان عيد النيروز عادة.

ب - الجزية:

كانت الجزية من أهم مصادر بيت المال وموارده، وهى تؤخذ من أهل الذمة فرضت الجزية على النصارى واليهود فى الدولة العباسية مقابل حمايتهم والدفاع عنهم، وكانت الجزية تجمع من الرجال القادرين على حمل السلاح بعد أن وزعت عليهم بنسب مختلفة. فيدفع الفقير ١٢ درهما فى السنة والمتوسط الحال ٢٤ درهما فى السنة والثرى ٤٨ درهما فى السنة، فوصل مبلغ الجزية بأواخر القرن الثالث الهجرى من ذمى مدينة بغداد فقط مائتى ألف درهم فى السنة. وقد تشدد الإسلام فى جبايتها بناء على أن أحكام القرآن القائل: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون".

ج - الموارث:

ومن موارد بيت المال أيضا "ديوان الموارث" أنشأ هذا الديوان الخليفة العباسى المعتمد. وتجمع من تركة من يموت دون وارث.

د - ضريبة الخمس:

هذه الضريبة تغذى بيت المال مما يستخرج من بطن الأرض وجوف البحر. فهى أخماس المعادن، وما يقذفه البحر أو ما يستخرج منه كاللؤلؤ والعنبر والرسوم الجمركية. هذا إضافة إلى ما يصادر من أموال الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة.

٢ - النفقات أو المدفوعات:

فكما كانت الموارد كثيرة كذلك فإن المدفوعات تعددت على مرافق الدولة ومصالحها كافة، وهى تصرف وفق ما يأتى: أرزاق القضاة والولاة والعمال وسائر الموظفين، تعطى للجنود بدلا من مرتباتهم، إضافة عن الإنفاق على كرى الأنهر

والترع وإصلاح مجاريها، وعلى المسجونين وأسرى المشركين من مأكّل ومشرب وملبس، ودفن من يموت منهم، وشراء المعدات الحربية. . . .

وأورد هلال بن الصابئ إحصائية طويلة عن النفقات اليومية للدولة العباسية فى أوائل عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٠هـ) - فبلغت نحو سبعة آلاف دينار أى أكثر من مليونين ونصف مليون دينار سنويا فى الوقت الذى كان مجموع الإيرادات يبلغ حوالى خمسة ملايين دينار فى السنة. أما فى عهد الخليفة هارون الرشيد فقد بلغت الأموال التى تجبى من الضرائب اثنين وأربعين مليوناً ديناراً، ما عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من محاصيل. وقد بلغت النفقات فى عهد الخليفة المأمون ستة آلاف دينار كل يوم، أى أكثر من مليونى دينار فى السنة.

إن دلت على ضخامة الميزانية، فى كثرة الإيرادات والمصروفات على شئٍ إنما يدل على رخاء البلاد وانخفاض الأسعار. فقد أورد الخطيب البغدادي فى كتابه "تاريخ بغداد"

أنه سمع من يقول: "رأيت فى زمن أبى جعفر كبشا بدرهم وحملاً بأربعة دنانق والتمر ستين رطلاً بدرهم، والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم، والسمن ثمانية أربطال بدرهم. . . وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلاً بدرهم ولحم الغنم ستين رطلاً بدرهم. . .".

ثانياً: الزراعة:

اعتنت الدولة العباسية بالزراعة اعتناء كبيراً، لأنها كانت تعطى مردود لحزينة الدولة العامة يقدر بثلاثين بالمئة من الواردات فحفرت الترعى والمصارف للمياه وأقامت الجسور والقناطر. فالأرض الواقعة ما بين النهرين - دجلة والفرات - كانت منذ القديم مشهورة بخصبها، فهى لذلك من أحصأ أراضي الدولة العباسية الأمر الذى جعل الحكومة تهتم بالإشراف عليها إشرافاً مباشراً، ومد شبكة من

الترع والمصارف فيها حتى كثرت بها المزارع والبساتين وعرفت بأرض السواد لكثرة ما فيها من الشجر والزرع والخضرة. وكانت غالبية الأرض تروى من ماء الفرات، فى حين جعلت مياه دجلة لرى الأراضى الواقعة على شاطئه الغربى وعلى ساحل الخليج وبذلك أمكن توفير الماء لرى جميع الأراضى الواقعة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى مزارع خضراء تدر الخير على أهلها والدولة. أما أرباض بغداد فامتدت إليها جميعا القنوات، مما مكن أهلها من غرسها بالنخيل بعد أن كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد. كذلك كثرت العناية بزراعة البساتين والحدائق وتنسيقها.

١ - الحاصلات الزراعية؛

ومن أشهر المنتجات الزراعية فى جميع أنحاء الدولة العباسية حيث كانت تتوفر المياه، الحنطة. أما الذرة فقد اقتصرت زراعتها على أجزاء معينة مثل جنوب شبه جزيرة العرب. وكذلك الشعير والأرز والنخيل والزيتون وقصب السكر. أما الفواكه فأشهرها الكومة (العريش) التى غرست فى جميع أنحاء الدولة العباسية، والنانج الذى جلب من الهند وزرع بعمان والبصرة والعراق والشام، لكنه لم يحتفظ برائحته الطيبة ولونه الحسن الذى يوجد فيه بأرض الهند. والتفاح فى بلاد الشام، والخوخ بمكة وكثرت فى العراق زراعة البطيخ والرمان أيضا إضافة إلى زراعة التمور والأرز والشعير والذرة.

٢ - ديوان الماء؛

ذكرنا أن الدولة العباسية اعتنت بعمليات الري فنظمها على طريق الترع والسدود، فخصصت الدولة جماعة من الموظفين أطلق عليهم اسم المهندسين للمحافظة على هذه السدود خشية تسرب الماء وبالتالي انفجارها وانثاق الماء منها. وجعل العباسيون ماء الري ديوانا أطلقوا عليه اسم "ديوان الماء". كان يشرف عليه موظف كبير يعاونه أكثر من عشرة آلاف عامل. كذلك عنوا بإقامة السدود المقاييس

على الأنهار لمعرفة مقدار ارتفاع الماء وانخفاضها والاستئناس بذلك فى فرض الضرائب .

٣ - الحيوانات:

اهتم المزارعون زمن الدولة العباسية بتربية الأبقار والجاموس للاستفادة من ألبانها واستعمالها فى حراثة الأراضى . إلا أنهم اعتقدوا أن لحم البقر ضار بالصحة ، لذلك فضلوا لحم الجاموس عليه ، لكن ذلك لم يمنع من الاستفادة من ألبانها . وذكر ابن قتيبة أن اللحم المجفف (القديم) فى الشمس كان معروفا ويقبل الناس عليه بكثرة .

٤ - إقطاع الأرض:

أقطع الخليفة أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ببغداد يعمرونها ويسكنونها ويحصلون على غلتها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات . وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان . وانتشر هذا النظام فى العصر العباسى الثانى حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية ، فكانوا يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغا من المال ، يحدد باتفاق خاص بين صاحب الإقطاع والحكومة . وقد أفتى الفقهاء أن يكون الخراج الذى يجمع عن الأرض المقطعة العشر وتعود الأرض المقطعة إلى الحكومة فى حالة مصادرة أصحابها أو عند تطرق الخراب إليها .

- عيوب نظام الإقطاع:

لم يخل نظام الإقطاع من عيوب ، ذلك أن المقطع كان يعمل دائما على الإثراء وجمع المال ، ولا يتردد فى إرهاب الأهلى وإثقالهم بالضرائب المختلفة ، حتى يستطيع أن يؤدى إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ويحتفظ لنفسه بما زاد عن ذلك . فى حين يعود الغبن على الأهالى الذين فلما تصل أصواتهم إلى مسامع السلطة .

ثالثا: الصناعة:

ازدهرت الصناعة ازدهارا كبيرا فى كافة أرجاء الدولة العباسية بسبب وفرة موارد الثروة المعدنية، إذ استخرج الفضة والنحاس والرصاص من مناجم فارس وخراسان كما استخرج الحديد من مناجم قرب بيروت، فى حين استخرج الملح والكبريت من شمال فارس، والقار والنفط من بلاد الكرج، والذهب من المغرب ومن بلاد النوبة والبحر الأحمر وبقيت أفريقيا مصدرا رئيسا لتوفير الخشب والعاج وأهم الصناعات: الزجاج، والخزف والمنسوجات والفخار والصباغة والدباغة والحدادة والأحذية إلخ..

١ - الزجاج والخزف:

وراجت صناعة الزجاج والخزف فى بلاد الشام بصفة خاصة، فأنتجت نوعا من الزجاج المنقوش بالذهب على درجة كبيرة من الإتقان، وكثر إنتاج الزجاج الملون المطلقى بالمينا الذى تنتجه البلاد فتم تصديره إلى جهات كثيرة من العالم. وقد ورث المسلمون صناعة الزجاج عن الفينيقيين والسوريين والمصريين. وصنع فى العراق وفارس البلور المصفى لأول مرة. ويحتفظ اللوفر والمتحف البريطانى بمتحف فاخرة من سامراء والفسطاط: من أفداح، وآنية وقناديل موشاة بألوان براق ومغطاة بطلاء ملون بألوان الطيف أو ببلاطين معدنى ذى ألوان متغيرة كقوس القزح.

٢ - المنسوجات:

وقامت مصانع النسيج فى فارس والعراق والشام ومصر. فاشتهرت الكوفة بكوفياتها الحريرية، وامتازت دمشق بأقمشتها الحريرية التى اشتهرت باسم "الدمقس" كما امتازت مدن خراسان وفارس بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها. واشتهرت بصناعة النسيج من مدن مصر دمياط وديق التى نسبت إليها الثياب الدبقية فضلا عن تنبس التى كانت تصدر وحدها إلى العراق ما قيمته ثلاثين ألف دينار سنويا. وكان لمصر المقام الأول فى إنتاج

المنسوجات الكتانية على حين كثرت صناعة القطن في أقاليم المشرق، وهذا ما جعل الثعالبي يقول: أن القطن لخراسان والكتان لمصر. وأنشأ العباسيون دورا للطراز في أهم المدن الفارسية. واشتهرت الثياب في ذلك العصر بفضل ازدهار صناعة النسيج ومنها: الثياب العتابية المصنوعة من الحرير، المنسوبة إلى عتاب أحد أحياء بغداد، والخسرواني وهو من الحرير أيضا وينسب إلى خسرو شاه أحد ملوك الفرس، والقلموني وهو نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلأأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس وكان يصنع في دمياط وتينس خاصة والتستري من الحرير وينسب إلى مدينة تستر في فارس، والنصفية وهي ثياب تصنع من الحرير والقطن. وصنعت في شيراز أبراد (نوع من الثياب) عرفت بالشيرازية وفي بخارى بالثياب البخارية.

٣ - الورق:

واهتم العباسيون بصناعة الورق، فأنشئوا لهذه الصناعة مصانع في عدة مدن وجلبوا لها الأساتذة والصناع من مصر التي اشتهرت بصنع الورق من نبات البردى منذ القديم والذي استمر مستخدما في صناعة الورق حتى العصر العباسي الثاني، عندما حل محله الكاغد الذي انتقل من الصين إلى العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري. واشتهرت سمرقند بصناعة الكاغد، حتى قيل إن كواغد سمرقند عطلت قراطيس مصر ومن سمرقند انتشرت صناعة الورق إلى بغداد حيث أسس الفضل بن يحيى البرمكي سنة ١٧٨هـ / ٧٩٤م. أول مصنع للورق. وانتقلت صناعة الورق إلى أوروبا في أواخر العصور الوسطى عن طريق الشام. فأطلق عليه الأوروبيون اسم «الصحائف الدمشقية».

٤ - التعدين والصناعات الأخرى:

وقطعت صناعة المعادن شوطاً بعيداً من التقدم، فاشتهرت بها مصر، كما اشتهرت بغداد بالصياغة التي نبغ فيها الفرس من حيث الدقة والجمال، فكانوا

يرصعون الزجاج بالجواهر، ويكتبون عليه بالذهب المجسم، ويصنعون للملوك أقداحاً تبهر الأبصار. ويجعلون على الأواني صوراً لطيور تطير وحيوانات تجرى وغيرها.

وقد جعلت الدولة العباسية لكل حرفة في المدن الكبرى سوقاً خاصة، كسوق الحدادين وسوق النجارين وسوق البزازين. . إلخ. ويقال أنه كان في بغداد وحدها أربعة آلاف محل لصنع الزجاج، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف. ومهما يكن في هذا القول من مبالغة، فهو يدل على مدى نشاط الصناعة في العصر العباسي وأن ننس لا ننسى الصناعات الخفيفة الأخرى مثل استخراج العطور، فاشتهرت مدينة جور (جنوبي فارس) في صناعة ماء الورد وتصديره إلى المغرب والأندلس ومصر وبلاد الهند والصين أو صناعة الحصر العبادانية وصناعة الطواحين المائية التي اشتهرت مدينة الموصل بصناعة المطاحن المعروفة بالعربات المصنوعة من الخشب والحديد.

رابعاً: التجارة؛

اتسعت رقعة الدولة العباسية إلى أن شملت أرضاً واسعة ومناطق غنية بالمعادن والصناعات النسيجية والمنتجات الزراعية الأمر الذي أدى إلى ازدهار التجارة الداخلية لتبادل المنتجات والسلع بين مختلف المناطق. هذا إضافة إلى أن موقع الدول العباسية جعلها مركزاً تلاقى القوافل التجارية القادمة من الشرق إلى الغرب والعكس. فعبورها كانت البضائع تمر إلى الأسواق التجارية العالمية فضلاً عن البضائع التي تصدر منها أو ترد إليها من مختلف أنحاء العالم.

هذا ما جعل الدولة العباسية تهتم بالتجارة وتسعى إلى ازدهارها، فمهدت لها الطرق، وحفرت الآبار، وبنت المحطات للاستراحة على امتداد طرق القوافل، وأنشأت المنائر في الثغور البحرية. ولم تهمل توفير الأمن وحماية التجار ومتاجرهم بالضرب بشدة على أيدي العابثين وقطاع الطرق والصوص، وبنوا الأساطيل البحرية لحماية السواحل من قراصنة البحر.

١ - الطرق التجارية؛

كانت الطرق التجارية الأساسية بين الشرق والغرب تمر كلها تقريبا بأراضي الدولة العباسية منها:

- ١ - طريق البحر الأحمر والفلزم ومنها تحمل البضائع إلى القاهرة حيث تحمل فى النيل إلى الإسكندرية .
- ٢ - طريق المشرق فى بغداد فإنطاكية على البحر المتوسط .
- ٣ - طريق الشمال مرورا ببلاد الروس فبحر قزوين ثم مرو وسمرقند ومنها إلى الصين .
- ٤ - الطريق البرى عبر شمال أفريقية فى مصر والعراق وفارس ، ومنها إلى الهند والصين .

٢ - السلع والعلاقات التجارية؛

سيطر اليهود على التجارة بين الشرق والغرب فعرفوا للمسلمين باسم "اليهود الراذنية" لأنهم وافدون من نهر الرون ، هذا فى الوقت الذى لم يهمل العرب أمر التجارة فأسهموا فيها إسهاما وافرا ، وقاموا بأوسع نشاط بحرى حتى وصلوا عن طريق البحر إلى الهند والصين فكانت لهم جاليات فى كثير من مدن جنوب وشرق آسيا ، مما أوصل الإسلام إلى تلك الجهات . وقد جلب العرب التوابل والعطور والحرير من الهند والصين . وانتظمت العلاقات التجارية بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وآسيا الشرقية . كما كان زمرد الهند ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة ، وكان أمراء الشرق الأقصى يطلبون العاج وسن الفيل من الحبشة بواسطة التجار العرب ، فصارت عدن سوقا كبيرة لحاصلات الشرق . ثم ما لبثت بعض المدن العربية أن دأعت شهرتها التجارية كبغداد والبصرة والإسكندرية .

٣ - المراكز التجارية:

فكر الخليفة هارون الرشيد فى شق قناة تصل ما بين البحرين الأحمر والمتوسط إلا أن البعض أخافه من أن الروم قد يسلكون هذه القناة التى توصلهم إلى الحرمين فى الحجاز مما يمكنهم من طعن المسلمين فى مقدساتهم وقطع طريق الحج فعدل عنها. أما الخليفة المعتصم فقد حصن إنطاكية على البحر المتوسط حتى غدت من أهم المراكز التجارية ببلاد الشام. هذا فضلا على الفرما والقلزم والإسكندرية ودمشق حيث شهدت جميعها نشاطا تجاريا واسعا. أما بغداد فقد صارت أكبر الأسواق العالمية التجارية، تتحدد أثمان كثيرة من السلع فيها وزاد من أهميتها كونها حاضرة الخلافة العباسية وملتقى كثير من الطرق التجارية.

٤ - الأسواق التجارية والعملات:

اعتاد المسلمون على إقامة الأسواق فى أوقات معينة بالمدن التجارية الهامة. ومن المدن التى اشتهرت بأسواقها فى ذلك العصر العباسى بغداد والبصرة. وجرى التعامل غالبا فى هذه الأسواق بالعملة الذهبية وهى الدينار.

واستخدم المسلمون أيضا الشيكات، وعندهم أخذت أوروبا تستخدم الشيكات فيما بعد. وإلى ذلك العصر أيضا ترجع نشأة المصارف لحفظ الأموال وتيسير المعاملات التجارية فازدهرت الحياة الاقتصادية وانتعشت الأمر الذى أدى إلى تحسين الأوضاع المعيشية وبالتالي الحياة الاجتماعية. وقد شاع التعامل بالدرهم الفضى فى عهد المنصور، الذى يساوى ٢٥ فلسا بونزيا. ثم أخذ الدينار المغربى يغزو أسواق الخلافة العباسية فيتم التعامل به جنبا إلى جنب مع دراهم الشرق حتى نهاية القرن التاسع الميلادى إذ توحدت العملة وأصبحت وحدتها الأساسية الدينار الذى كنت أسعاره فى ذلك الزمان خاضعة لتقلبات خطيرة، إذ يرتفع سعر الدينار كل عام فى موسم الحج. على أن التلاعب فى عيار الذهب لجأت إليه حكومات العصور العباسية محاولة التخلص من الأزمات المالية. وأخيرا كان الدينار يساوى ١٤ درهما. والدرهم يساوى ٦ دنانق والدوانق ١٢ قيراطا.

الحياة الاجتماعية

أظهر ازدهار ورواج الحياة الاقتصادية فى الدولة العباسية أثره على الحياة الاجتماعية. فظهر ذلك جليا فى التقاء كثير من الأجناس والعناصر والطوائف الدينية وغير الدينية فى العراق قلب الدولة. وهذا الخليط البشرى الكبير، ذو الدماء واللغات والعادات والتقاليد والآراء والمذاهب المتعددة، أكسب الدولة العباسية لونا خاصا من الحياة الاقتصادية التى تلتقى حيناً وتتنافر أحيانا، كما يظهر من الصورة التى نحاول إظهارها فيما يأتى:

١ - عناصر السكان:

أ - العنصر الفارسى:

تميز العصر العباسى الأول بطغيان العنصر الفارسى فى المجتمع لقيام الخلافة على أكتاف الفرس. ولم يلبث هؤلاء أن تركوا بصماتهم واضحة فى هذا المجتمع وبخاصة ما يتعلق بمظاهر الترف والثراء مثل بناء القصور وتعدد الأزياء وظهور ألوان فارسية جديدة من الأطعمة. هذا إضافة إلى مجالس اللهو والغناء والشراب التى بالغ فيها بعض الخلفاء العباسيين فى العصر الأول تقليدا للعادات الفارسية. وظهر واضحا التأثير الفارسى أيضا فى ملابس الرجال كاستعمال القلانس والأقبية والسراويل والجوارب، بل تعدى ذلك إلى أزياء النساء، فأكثرت من استعمال الحلى والمجوهرات والأحزمة. وذهب العباسيون إلى أبعد من ذلك بمشاركة الفرس فى أعيادهم وخاصة عيدى النوروز والمهرجان.

ب - العنصر التركى:

غلب العنصر التركى على المجتمع العباسى بعدما تكاثرت عددهم منذ بدء خلافة المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢م) وبفضل ما عرف عنهم من شجاعة وقوة بدنية، استطاعوا التغلب على بقية عناصر المجتمع العباسى وعاثوا

فيها فسادا يمصادة أموال الناس وإشاعة الفوضى بينهم بتراكضهم وهم على ظهور الدواب فى شوارع بغداد وطرقها المكتظة بالناس، فيصدمونهم وتقع المشاجرات الدموية أحيانا. ولم يسلم المجتمع العباسى فى العصر الثانى من أثر العنصر التركى الأثوى إذ ازداد عدد الجوارى التركيات اللاتى امتلأت بهن قصور الخلفاء الأمراء ورجال الدولة. الأمر الذى أدى إلى ترك بصماتهم واضحة فى فن التجميل وابتكار الأزياء والتألق فى الملبس والمأكل والمشرب. هذا إضافة إلى ما اشتهرت به الجوارى التركيات من جمال مع بياض اللون وحلاوة العيون التى أقصر من وصفها الكتاب المعاصرون.

ج - العنصر العربى:

لم يقض طغيان النفوذين الفارسى والتركى على أثر العنصر العربى فى المجتمع العباسى. ولم يفقد العنصر العربى كثيرا من امتيازاته لانتشار القبائل العربية فى مختلف أنحاء العالم، فضلا عن القبائل التى بدأت تهاجر إلى العراق فى القرن الرابع الهجرى. ومن هؤلاء فريق من البدو الذين تركوا أثر سيئا فى الحياة الاجتماعية لنشرهما الاضطرابات والاعتداء على المدن والقرى ونهبها إلى جانب تمسكهم بروح العصبية القبلية بكل ما فيها من المساوىء فى هذا الوقت كان العرب المتقدمون أمثال بنى حمدان فى الموصل وحلب فكانوا عنصرا طيبا من عناصر الاستقرار الاجتماعى فى الدولة، وأسهموا إلى حد كبير فى تنمية النشاط الحضارى والعمرانى.

وسواء أكان العرب - بدوا أو متحضرين - فإن تأثيرهم كان قويا فى المجتمع العباسى بوقوفهم موقفا عدائيا من الزنادقة، ومحافظتهم على التقاليد العربية الإسلامية. وكان لوقوف المرأة العربية موقفا مشرفا بالمحافظة على كيائها وشرفها وعدم الانجرار وراء الشهوات والتبذل كالجوارى الفارسيات والتركيات. وهذا الموقف العربى أدى إلى الحد من تيار الفساد والتدهور الاجتماعى فى العصر العباسى.

٢ - الطوائف الدينية:

أ - المسلمون:

تعددت الطوائف الدينية في المجتمع الإسلامي ومنها: المسلمون، أهل الذمة، المجوس وغيرهم... لكن الدولة بوصفها دولة إسلامية وغاية الفتوح كانت نشر الإسلام وتعاليمه، فإن الغالبية العديدة والسيادة الاجتماعية كانت للمسلمين. وعلى هذا الأساس كانت الإسلام ومثله وتقاليده هي المهيمنة على المجتمع العباسي بوجه عام.

وبقيت في هذا المجتمع لآل البيت المكانة الخاصة فيه، لأن الدعوة العباسية قد قامت في البداية على أساس الدعوة لآل البيت، لذلك أطلق عليهم اسم الأشراف الذين شكلوا طبقة مرموقة شملت بنى هاشم من العباسيين والعلويين، لكن العباسيين كانت لهم المكانة الأولى بوصفهم حكام الدولة فاحتفظوا لأنفسهم بامتيازات لم يشاركهم فيها أحد، في حين ضعف العلويون لوقوفهم الموقف العدائي من العباسيين فتعرضوا إلى ضربات قاسية على أيديهم. واستمر نقيب الأشراف يرعى شؤون بنى هاشم من العباسيين والعلويين يعاقب كل من يخرج منهم عن حدود اللياقة إلى نهاية القرن الرابع الهجري إذ أصبح لكل من العلويين نقيب وللعباسيين نقيب أيضا. وكانت وظيفة النقيب ترسم بتقليد من الخليفة على أن يجوز الجمع بين وظيفة النقابة ووظيفة القضاء أو غيرها.

ثم تفاعلت الخلافات المذهبية بين المسلمين العرب فانقسموا إلى شيعة وسنة، وتأججت نار الحرب القديمة بينهما - الخلاف بين العلويين والأمويين - حتى أنه صار لكل فريق منهم أعياده وتقاليده، فبالغ فريق في إحياء تلك الأعياد والتقاليد تعصبا لمذهبه أو نكاية في الفريق الآخر، الأمر الذي أضعف من تماسك المجتمع الإسلامي في العصر العباسي.

وإذا كانت الخلافة العباسية قد تأججت فيها نار الخلافات المذهبية بين

المسلمين العرب، فإنها عرفت التفرقة بين المسلمين العرب والمسلمين من غير العرب (الموالى) فبقى التباعد بينهما على أشده حتى عهد المأمون إذ لم يحقق للموالى قبل خلافة المأمون الاندماج بالعرب فى الاحتفاظات العامة.

ب - أهل الذمة:

وهم أهل الكتاب من اليهود والمسيحيين الذين استطاعوا الوصول إلى بعض وظائف الدولة الكتابية إلى جانب عمل البعض منهم كأطباء وصيارفة ومهندسين وغير ذلك. ولم تتدخل الدولة فى حياتهم الخاصة وإن تدخلت أحيانا فى حياتهم الدينية فقد كان تدخلها محدودا وفى ظروف خاصة ومعينة كما حدث فى عهد المتوكل. فقد أمر المتوكل بهدم بعض الكنائس المنشأة بعد الإسلام. ونهاهم عن الوظيفة والأعمال العامة وعن إظهار شعائرهم الدينية كالصلبان وغيرها، وجعل على أبوابها صور شياطين من خشب. وفرض عليهم أن يرتدوا الطيالة العسلية، وأن يشدوا الزنار على خصورهم، وأن يرقعوا لباس رجالهم برقعتين تخالفان لون الثوب ولون الواحدة غير لون الأخرى، ونهاهم عن التعليم فى كتاتيب المسلمين وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين. وكان يقوم، برعاية شئون أفراد كل طائفة، رئيس دينى يلى منصبه بعد من الخليفة العباسى. وقد أعفى أفراد الطائفتين من الخدمة العسكرية مقابل دفعهم الجزية التى فرضت على الرجال القادرين على الحرب، بينما أعفى من تأديتها النساء والأطفال والشيوخ والمرضى والعاجزين والرهبان.

وقد قويت الروابط الاجتماعية بين المسلمين وأهل الذمة فى العصر العباسى إذ شارك كل طرف الآخر فى أعياده واحتفالاته. كمشاركة للمسلمين لأهل الذمة بعيد الشعانين. فتظهر الوصائف فى احد الشعائن بقصر الخلافة ببغداد، مترينات فى ثياب جميلة، وفى أعناقهن صلبان من الذهب، وبأيديهن قلوب من النخل (رأسها اللين) وأغصان الزيتون وشارك المسلمون النصارى فى خميس الأسرار، وعيد الفصح وعيد العنصرة، وعيد القديس أشمونة، وعيد البربارة، وعيد الميلاد

وعيد الغطاس . وجارى أهل الذمة المسلمين فى ملبسهم باستثناء لباس الرأس الذى اقتصر فيه التعمم على المسلمين وكذلك الزنار كما تبادل الفريقان الهدايا والمأكولات فى المناسبات الدينية وغير الدينية . إلا أن العلاقات الاجتماعية توطدت بين المسلمين وأهل الذمة بزواج المسلم من أهل الكتاب دون أن تجبر الزوجة على ترك دينها والدخول فى الإسلام ولم يسمح للكتابى بالزواج من مسلمة . واقتصر التغيير فى الدين على الدخول فى الإسلام .

ج - الصابئة والمجوس :

اشتمل المجتمع العباسى أيضا على طائفة الصابئة أى عبدة الكواكب ، وطائفة المجوس أو عبدة النار ، ولما كان هؤلاء أقليات ضئيلة ليس لهم تأثير فعال فى المجتمع ، يعيشون فى شبه عزلة يحتفظون بتعاليم عقائدهم السرية ولا يختلطون بغيرهم ولا يصاهرون مخاليفهم فى الدين ، فقد ناهضهم المسلمون العداء بسبب تعاليمهم المنافية للشرع والأخلاق . ومع هذا فقد سمح لهم بمباشرة أعمالهم الحرة فبرع الصابئة فى بعض الصناعات كالنقش على الفضة ، ونبغ منهم أطباء مشهورون مثل : ثابت بن سنان ، وثابت قره واشتهر من كتابهم هلال بن الصائب ، كما اشتهر فى علم الفلك أبو عبد الله البتانى واحتفلت الدولة العباسية ببعض أعياد المجوس مثلاً : المهرجان والنوروز .

٣ - طبقات المجتمع :

يضم المجتمع العباسى عدة طبقات ، فىأتى فى أعلى الهرم السكانى الحكام ثم يليهم العلماء والتجار أخيرا العامة .

أ - الحكام :

وتشمل طبقة الحكام الخلفاء والوزراء والقواد إلى جانب أهل الخلفاء ورجال الحاشية . وقد سبقت الإشارة إليهم فى كلامنا على نظام الحكم .

ب - العلماء:

تبوأ العلماء مكانة مرموقة فى المجتمع العباسى . سواء لدى الخلفاء ورجال الدولة أو لدى التجار والعامّة . فقد تميز العصر العباسى بتشجيع العلم والعلماء والنهوض بالعلوم والآداب فيروى عن أبى معاوية العالم "الضرير" أنه قال: أكلت مع هارون الرشيد - أمير المؤمنين - طعاما يوما من الأيام، فصب على يد رجل لا أعرفه فقال هارون الرشيد: يا أبا معاوية تدرى من صب على يدك؟ قلت لا قال: أنا، قلت أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم إجلالا للعلم. فعاش غالبية العلماء فى العصر العباسى فى رغد من العيش، وتميزوا فى المجتمع بزيهم ومظهرهم الخاص . وكان لهم تأثير كبير فى المجتمع بما بثوه من مثل اجتماعية وخلقية ودينية وبسبب تصديهم للمنكر ومقاومتهم للانحرافات الاجتماعية التى كانت تظهر من وقت لآخر . وقد بلغ ببعضهم التهاون والاستهتار إلى درجة انتقاد تصرفات الحكام، وعملوا على تحريض العامة ضد تصرفات الحكام الأمر الذى كان أثره فى الأوضاع العامة للدولة العباسية .

ج - يأتى فى المرتبة الثانية بعد العلماء التجار:

الذين جمعوا ثروات كبيرة بسبب ازدهار الدولة العباسية وانتعاش عمرانها . فكانت منهم فئة عاشت فى المدن الكبرى اقتصر عمل أفرادها على التعامل بالسلع الثمينة كأنواع الرقيق الممتاز والمجوهرات . . . وارتبط عمل هذا الفريق من التجار أيضا بقصر الخلافة والوزراء والقواد أو رجال الدولة ارتباطا مباشرا فجمعوا الثروات الكبيرة التى استشارت مطامع الحكام فيهم فتعرضوا للمصادرات فى العصر العباسى أكثر من مرة .

أما صغار التجار والباعة فكان اتصالهم أقوى بعامّة الشعب، وظلوا من ناحية وضعهم الاجتماعى أقرب إلى العامة منهم إلى الفئة الممتازة فى الدولة . وكانت أحيانا كثيرة ثورة بعض التجار الكبيرة سببا فى نزوع أصحابها إلى التحلل من آداب المجتمع وتقاليده، ويحبون حياة فيها قدر كبير من الاستهتار والمجون .

د - الحرفيون والصناع:

يؤلف الحرفيون والصناع فئة نشطة فى المجتمع العباسى على اختلاف عناصرهم وطوائفهم، لكن هذا لم يمنع من تكتل أفراد كل صناعة أو حرفة فى سبيل تنظيم مصالحهم المشتركة من ناحية والدفاع عن تلك المصالح من ناحية أخرى. عاش معظم هؤلاء معيشة متوسطة فى المدن، لا هم بالأغنياء الموسرين، ولا هم بالفقراء المعدمين. ومن ضاقت به الحال أحيانا ساهم بدور فعال فى الحركات التى قامت ضد الحكومة أملا فى تحسين أوضاعهم.

هـ - الغوغاء والعامة:

اكتظت المدن فى العصر العباسى، وخاصة بغداد - بجموع من الغوغاء من أجناس وأديان مختلفة. أطلق على هؤلاء اسم العامة. ونظرا لكثرة عددهم فقد كانوا مصدر فساد واضطراب فى المجتمع مما حدا بالحكومة إلى تملقهم أحيانا وتحسن إليهم اتقاء لشركهم. وظهر الشطار والعيارون من منطقة العامة الذين تميزوا بحركة ثورية ضد الحكام استطاعوا إنشاء تنظيم عسكري يخضع لقيادة موحدة وتنظيم مدنى يرفع أمورهم الخاصة. ولكن سرعان ما احترف بعض أفراد هذه الجماعة السرقة فكانوا مصدرا للفوضى فى الدولة وشاركوا فى الحركات الثورية ضد الخلفاء والحكام وعندما تتردى الأحوال، وترتفع الأسعار وتقل الأقوات حتى الخبز يندر وجوده فكان الناس يلجئون إلى أكل الموتى والحشيش والجيف وروث الحمير عدا عن الذين يموتون بسبب المرض.

فى الوقت الذى كثر فيه الشطار والعيارون فى المدن، انتشرت جموع الفلاحين والرعاة فى الأرياف والبادية. وبالرغم من عناية العباسيين بأمور الزراعة والرفق فى جمع الخراج وتحرير الفلاحين، من القيود التى تكبلهم، فقد ظل الفلاح فى ذلك المجتمع يحيا حياة ذليلة، ويعيش فى وضع اجتماعى تعيس، كان الفلاح فيه أقرب إلى وضع أفنان الأرض أو العبيد، منهم إلى أوضاع الفلاحين

الأحرار. أدى هذا الوضع بالفلاحين إلى القيام بالثورة حيناً واعتناق بعض المذاهب الخارجية أحياناً أخرى.

٤ - حياة القصور:

أ - قصور الخلفاء:

اتجه كثير من الخلفاء العباسيين - تحت تأثير النفوذ الفارسي من جهة والثورة الطائفة التي رأوا أنفسهم غارقين فيها من جهة أخرى - نحو بناء القصور العظيمة، وتأثيرها بفاخر الأثاث والرياش. ولم يلبث أن حذا الوزراء والأمراء والقادة وكبار رجال الدولة حذو الخلفاء، حتى أصبحت القصور سمة من سمات العصر العباسي البارزة. وإن نزع بعض الخلفاء نحو التدين والخير، ومالوا إلى حياة البساطة، ومن هؤلاء المهتدي والمتقي فإن الغالبية نزعت إلى حياة الترف، حتى أصبحت قصور الخلفاء العباسيين في بغداد محور كثير من القصص الذي امتزجت فيه الحقيقة بالخيال. هذا وبعد الخليفة المهدي أول الخلفاء الذين بدأوا بحياة الترف والإسراف الواسع فبدأ الخلفاء باستكثار الخدم في قصورهم فكان أول من قرب الخدم، واستكثر منهم الأمين بن الرشيد حتى وصلت أعدادهم إلى ١١ ألف خادم من الروم والسودان في عهد المقتدر بالله.

وما أن صارت سامراء حاضرة الخلافة العباسية في عهد المعتصم بالله، حتى استأنف الخلفاء العباسيون فيها بناء القصور، فقد بنى الخليفة المتوكل وحده تسعة عشر قصراً في سامراء، وشق الترع والقنوات لتصل المياه إلى قصره وبساتينه وحدائقه. وصار يجلس وسط منشآت الضخمة التي أقامها لنفسه في حاضرتة ويقول: "علمت الآن أنني ملك". دون أن يدري أنه سيقتل بعد تسعة أشهر من تصريحه بهذه العبارة. ولقد أفاضت المصادر التاريخية من وصف هذه القصور العباسية، وما كان فيها من برك مزينة بالفضة والذهب والجواهر، وجدران محلاة بالفسيفساء والرخام وأسرة من الذهب وستور من الديباج وبسط فاخرة ذات ألوان

ونقوش جذابة. إن دل هذا على شيء إنما يدل على مدى ما بلغه بعض الخلفاء العباسيين من ترف ونعيم.

ب - قصور الأمراء والقادة:

هذا الوزراء والأمراء والقواد حذو الخلفاء في بناء القصور وتزيينها بأروع الأثاث والرياش، وقد أسهبت المصادر التاريخية أيضا في وصف تلك القصور وخاصة قصر معز الدولة بن بويه وما كان يحتويه من أثاث ورياش وما كان عليه من فخامة وترف.

ج - حياة البذخ داخل القصور:

عاش الخلفاء العباسيون في قصورهم عيشة تتصف بالبذخ والترف لارتدائهم أفخر الملابس المصنوعة من الأقمشة الموشاة بالذهب والفضة والمرصعة بالجواهر، ولما كان يجري فيها من نشاط واحتفالات في المناسبات السعيدة وما كان يقام من مجالس اللهو والغناء والموسيقى... إلخ.

- فالنساء داخل القصور كن تفنن في اختيار الأزياء الثمينة ذات الألوان المتباينة المحلاة بخيط الذهب والجواهر، وعلى رؤوسهن العصائب المرصعة بالدر والياقوت والأحجار الكريمة، مع التزين بالقلائد والأكاليل والتيجان والمناطق أو الخلاخل الثمينة.

- أما في حفلات الزواج والختان التي كانت تجرى في العصور العباسية من حين لآخر إلى آخر وفي المناسبات السعيدة الأخرى، فقد تمد موانى مملوءة من الذهب الخالص مرصعة بأصناف الجواهر، والفراشون يأتون بزنايل مملوءة بدرهم ويصبونها بين أيدي المدعوين وهم يصيحون: "إن أمير المؤمنين يقول لكم: ليأخذ من شاء، ما شاء" ومن الأمثلة على ذلك زواج بوارن، وزواج أسماء بنت خمارويه بن أحمد بن طولون من الخليفة العباسي المعتضد الذي قصد من وراء هذا الزواج أضعاف حكم

(خمارويه) مصر وإرهاق خزينته . كما أن زواج أمير الأمراء محمد بن رائق قد كلفه خمسة عشر ألفا من الدنانير .

وكان بقصر الوزير على بن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وهذا الأخير كانت الأطعمة تحضر فيه للمقيمين بالدار من الكتاب والبوابين والموظفين وغيرهم . وكان في القصر خبازون يخبزون الخبز ليلا ونهارا ، والحلوانيين يعملون الحلوى باستمرار . ويذبح في كل يوم تسعون رأسا من الماعز وثلاثون جديا إضافة إلى عدد كبير جدا من الدجاج .

- وتعددت المجالس في القصور كما ذكرنا في العصر العباسي ومنها : مجالس الغناء والطرب والموسيقى ، ومجالس القصص ومجالس الوعاظ . وقد تطورت الموسيقى وكذلك فن الغناء في مجالس الطرب والغناء نتيجة لتأثير العباسيين بالفرس والروم من جهة ولانتشار الجوارى في المجتمع العباسي من جهة أخرى ، ولتقدير الخلفاء للمغنيين وتشجيعهم بالمنح والهدايا من جهة ثالثة . واشتهر من المغنيين في ذلك العصر إبراهيم الموصلي وإسحق ومخارق ، وزناب الزامر وعريب ، أما الجوارى اللاتي اشتهرن بالعزف على الآلات الموسيقية فعددهن كبير . نذكر منهن على سبيل المثال لا حصر شاجية جارية عبد الله بن طاهر ، وعبيدة الطنبورية .

وتعقد أحيانا كثيرة مجالس الطرب والغناء في غير المناسبات التي ذكرتها قبلا ، فهي تعقد بمناسبة الاحتفال بتولية خليفة جديد أو عندما يكون الخليفة أو الأمير راغبا في الترفيه عن نفسه ، وربما أقام الخليفة أكثر من مجلس في ليلة واحدة كما كان يفعل الخليفة الواثق . وفي هذه المجالس كان يجتمع المغنون والموسيقيون والندماء والشعراء فيغنون في حضرة الخليفة من خلف الستارة ويطرب الجميع فيبدأ الخليفة بتوزيع آلاف الدنانير على الجوارى المغنيات والمغنين إضافة على الشعراء .

ولم تقتصر هذه الحفلات على قصور الخلفاء إذ تعدتها إلى قصور الأمراء من الوزراء تشبها بالخلفاء، قد تدعو الطبقة الراقية الجوارى المغنيات إلى بيوت الحريك لإحياء حفلات غنائية نسائية. وانفرد الأمين بتعلقه بالخصيان فطلبهم من أماكن مختلفة وجعلهم خلوته فى ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه، وأمره ونهيه، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى قال أبو نواس:

أحمدوا الله جميعا يا جميع المسلمين

ثم قولوا، لا تملوا ربنا اتق الأميين

صير الخصيان حتى صير التغنين دينا

فافتدى الناس جميعا بأمير المؤمنين

ولم يتورع الأمين عن المجون والسكر، وكذلك المتوكل على الله الذى وضعه المسعودى بأنه "سكر سكر شديد" وإن المعتضد كان مشغوبا بالطرب، والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى.

ويقترن عادة مجالس الغناء والطرب بالشراب، وانفردت أحيانا مجالس خاصة بالشراب تنفق عليه الأموال الطائلة، ويحضرها الندماء وهم يتناقشون حول الندامة والشراب وأنواعه.

ولم تهمل حفلات الرقص، فقد لها نصيب فى حفلات الخلفاء والأمراء إذا أقيمت الحفلات الراقصة مناسبة الأفراح، فتتزين الراقصات بالثياب المزركشة ويحملن الزهور والرياحين، إلا أن نصيب الغناء كان أوفر من نصيب الرقص فى الانتشار والأهمية زمن الدولة العباسية ولم يهمل العباسيون أمر الصيد..

وأخيرا هناك نوع آخر من المجالس هو مجالس القصاص التى كانت على نوعين: عامة وخاصة. فالمجالس العامة كانت تصطبغ بصبغة دينية هادفة إرشاد الناس لاتباع الطريق القويم بتذكيرهم بآيات الله وأخبار السلف. بينما كانت المجالس الخاصة كان قد استحدثها معاوية بن أبى سفيان، فيقف فيها القاضى بعد

صلاة الصبح ويذكر الله ويصلى على النبي ثم يبدأ بالدعاء للخليفة ولأهل بيته وحاشيته وجنوده ولكن هذه الصبغة الدينية لم تستمر طويلا مع القصاص لأنهم انصرفوا عن جانبها الدينى إلى القصص الخرافى أملا فى تحقيق المكاسب المادية . فاستطاعوا أن يستميلوا نسبة كبيرة من العامة للمستمعين رجالا ونساء على حد سواء وصارت هذه المجالس تعقد فى أماكن مختلفة تارة فى المسجد وتارة على الطرقات أوفى الأسواق ، وتارة أخرى فى المقابر وهم يسردون أخبارهم الكاذبة تبعا لمخيلة القصاص ، وربما أنشدوا الأشعار الغزلية أو المأجنة ولما كانت أيضا أقوال هؤلاء القصاص لا تخلوا أحيانا كثيرة من نزعة مأجنة فقد ثار ضدهم بعض الكتاب والعلماء ونادوا بوقف نشاطهم ، فأمر الخليفة المعتضد العباسى بمنع القصاص من الجلوس فى المساجد والطرقات . ثم شدد عضد الدولة سنة ٣٦٧هـ فى منع القصاصين من الظهور بالمساجد وغيرها من الأماكن العامة . وفى عهد الخليفة القادر بالله أمر هو أيضا سنة ٤٠٨هـ بضرب القصاص واتخذ إجراءات مشددة للقضاء عليهم لكن مجالس الذكر سرعان ما أخذت تنافس مجالس القصاص فى القرن الرابع الهجرى لأن غالبية الذين يحضرون تلك المجالس كانوا من أهل التقى والإصلاح الذين انصرفوا عن مجالس القصاص بعد أن أحسوا بما فيها من انحرافات .

وعرف المجتمع العباسى أيضا مجالس الوعاظ ، وهذه كانت ذات صبغة دينية يشرح فيها الواعظ المسائل الشرعية ، ويوجب على تساؤلات الحاضرين .

وهذه المجالس كانت إما خاصة يجلس فيها الواعظ مع نفر قليل من الناس ، وإما عامة يحضرها من يشاء من الناس . إلا أن هذه المجالس التى كانت فى البداية ذات رسالة توجيه الناس نحو الخير والرشاد ، لم تلبث فى القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة أن تحولت إلى أداة للكسب ، فانتشرت الخرافات والبدع على السنة والوعاظ ، وانحط مستوى الوعاظ ، وانصرفوا عن الجلوس فى المساجد إلى الجلوس بالمقابر وبعض المحلات الهامة . ولم يكتف بعض الوعاظ بهذا القدر ، بل عمدوا

إلى إثارة الفتن بين السنة والشيعة، أو بين الحنابلة والشافعية، ثم أخذت هذه المجالس منحى سياسيا. وفي عهد القادر بالله صدرت مراسيم حددت مجال الوعظ في القول بالمعروف والنهي عن المنكر.

الحياة الفكرية والثقافية

استطاع مفكرو الإسلام أن يسهموا بسهم وافر في تراث البشرية، وأن يحفظوا خلاصة ما قدمته الحضارات السابقة من نتاج فكرى، ويطوروا هذه الخلاصة على أيديهم ويضيفوا إليها من ابتكارهم الشيء الكثير، مما جعل الحضارة الإسلامية بحق أعظم حضارة عرفها العالم أجمع طوال العصور الوسطى باعتراف مفكرى العالم.

وكان لانتقال حضارة الخلافة من دمشق إلى بغداد، وفي اعتماد الخلافة العباسية منذ بدء قيامها على الفرس، الأثر الأكبر فى نشاط عنصر الموالى فى الجانب الحضارى مثلما كان لهم النشاط الأعظم فى الحقل السياسى. وفى الوقت نفسه اهتم المسلمون بالعلوم النقلية أو الشرعية. علم الحديث، التفسير، والفقه والتشريع وما يرتبط بها من علم الكلام واللغة والبيان والأدب.

أولاً: العلوم النقلية:

١ - الحديث:

نهى رسول الله عن كتابة الحديث حتى لا يختلط الحديث بالقرآن وهذا ما جعل عملية التدوين تتأخر إلى أن قام محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، (ت ١٢٤هـ) بأول محاولة لتدوين الحديث، إذ أنه كان يحفظ ألفين ومائتى حديث، وروى عنه كل من مالك وسفيان الثوري. ثم قام بعملية جمع الحديث الإمام مالك بن القرة (٣٠ - ١٣٧هـ) فى كتاب "الموطأ فى المدينة"، وعبد الله بن عبد العزيز، وابن جريج فى مكة، وعبد الرحمن الأوزاعي (ت ١٧٦هـ) فى بعلبك - الشام، وشعبان الثوري (ت ١٩١هـ) فى الكوفة، وعماد بن سلمة بن لبنة فى البصرة (١٧٦هـ)، وجميعهم عاشوا وكتبوا الحديث فى القرن الثانى للهجرة.

وقد كان الهدف من جمع الحديث فى مختلف الأحوال والأمصاىر خدمة للتشريع بتسهيل استنباط الأحكام من الأحاديث المدونة، فجاء ترتيب المجامع فى القرآن الثانى للهجرة حسب الموضوعات. كأن تذكر الأحاديث الواردة فى موضع معين (الطهارة مثلاً) فى باب واحد. ثم لجأ المهتمون بجمع الأحاديث النبوية إلى طريقة الأسانيد وتعنى هذه الطريقة ترتيب الأحاديث حسب الرواة من الصحابة، فتجمع الأحاديث إلى رواها صحابى واحد مهما اختلفت موضوعاتها: من صلاة أو زكاة أو ميراث.

وفى القرن الثالث للهجرة نشطت حركة جمع الحديث، ونقده بتمييز الصحيح من الغث، فوضعت أهم كتب الحديث أمثال: كتاب البخارى (ت ٢٥٦هـ) ومسلم (ت ٢٦١هـ) والترمذى (ت ٢٧٩هـ) وغيرهم.

- التفسير:

نشأ التفسير أول ما نشأ مرتكزا على روى عن النبى الكريم فيما يتعلق بالقرآن الكريم وتفسير آياته. ثم تناقل التابعون عن الصحابة عملية التفسير حتى كان منهم من قام بتفسير بعض آيات القرآن وحتى ذاكرا سبب نزولها. فأصبح بالتالى لأهل التفسير طبقة تضخمت بمرور الزمن، ومع هذا لم تتخذ التفسيرات جميعها شكلا منظما، إنما كانت تروى الأحداث المتتابعة تفسيرا لآيات متفرقة.

ولم يمض وقت كبير حتى انفصل التفسير عن الحديث وأصبح علما قائما بنفسه، ثم انتظمت طريقة تفسير القرآن بوضع التفسير لكل آية من القرآن أو جزء من آية، مرتبة حسب ترتيب المصحف. فتسنى بذلك ظهور مجموعة من المفسرين ضاعت معظم تفاسيرهم، ولم يصل إلينا شىء منها إلا عن طريق ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ)، وهو صاحب التفسير الكبير الذى يمتاز بتحرى الدقة والأمانة.

وخالف المعتزلة التفسير المأثور للقرآن، فكانت حجتهم فى ذلك أن كل تفسير للقرآن لا يعتمد على العقل والاجتهاد مرفوض من الأساس. لذلك أجهدوا

أنفسهم فى تفسير الآيات القرآنية تفسيراً يتفق مع أفكارهم ووجهة نظرهم . ومن أشهر العاملين فى التفسير من المعتزلة ، أبى بكر الأصم (ت ٢٤٠هـ) وابن جرو الأسدى (٣٨٧هـ) .

القرآن مصدر علم النحو والكلام والفقه:

اتخذ المسلمون فى العصر العباسى القرآن الكريم مصدراً لكثير من العلوم التى اشتغلوا بها . فعلماء النحو اتخذوا منه مادة خصبة اعتمدوا عليها فى استنباط قواعد اللغة العربية ، وكذلك الفقهاء اعتمدوا عليه فى آرائهم الفقهية ، والمؤرخون اتخذوا من القرآن الكريم مصدراً من مصادرهم وعلماء الكلام فسروا القرآن بما يتفق ومبادئهم .

واصطبغ العصر العباسى بصيغة دينية كان لها الأثر الواضح فى حقل التشريع فشملت مهمة الفقهاء ميادين واسعة امتدت إلى شؤون الرى والضرائب والدواوين . . . ونتيجة لاتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين وتدخل الخلفاء فى كثير من المسائل المرتبطة بالدين أن ظهر الخلفاء العباسيون فى صورة رجال الدين والسياسة جميعاً . وقد تمسكوا بهذه الصفة (الدينية والسياسية) بوصفهم من آل البيت وأصحاب حق مقدس فى الحكم (نظرية الحق الإلهى المقدس) .

- المذاهب الأربعة:

ازداد عدد المشتغلين بالفقه الإسلامى نتيجة ازدياد وامتدت مساحة الدولة الإسلامية فى العصر العباسى وتباعد أطرافها فتضخم ونما كبريا الفقه الإسلامى وكان مع هذا النمو والاتساع أن اختلفت وجهات النظر بين الفقهاء الأمر الذى أدى إلى زيادة الاعتماد على القياس والاستنباط . وبالتالي أخذ الفقهاء يتناظرون فى هذا المجال أينما اجتمعوا . فى المساجد وفى حلقات الدرس ، وفى المنازل وعند اجتماعهم للحج ، فكثرت الاجتهاد والمجتهدون من الفقهاء وتعددت مذاهبهم فى العصر العباسى ، واشتهر من هذه المذاهب أربعة :

أ - المذهب المالكي:

كان مالك إمام دار الحجاز وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الحديث فاعتمد فيها المفسرون على مؤهلات التفسير. ورواية موروثة. وانتشر هذا المذهب في شمال أفريقيا والأندلس في العصور العباسية. وتلمذ على مالك مصريون وأفارقة ومغاربة وأندلسيون واستمع له تلامذة من البصرة وبغداد وخراسان وأهم مؤلفاته: "الموطأ".

ب - المذهب الحنفي:

أبو حنيفة كان إمام العراق وزعيم الفقهاء الذين يأخذون بطريقة الرأي والقياس (الاجتهاد). تولى أبو حنيفة القضاء على عهد بني أمية، لكنه رفض تولية أيام العباسيين فاضطهده المنصور ووضعه في السجن حتى توفي فيه. تلمذ عليه عدد كبير من التلامذة اشتهر منهم: القاضي أبو يوسف المتوفى سنة ١٨٢هـ/٧٩٨م. وأهم ما تميز به المذهب الحنفي هو حل المسائل الشرعية بروح التسامح.

ج - المذهب الشافعي:

ساد المذهب الشافعي في مصر وأفريقيا وهو وسط بين المذهبين السابقين، بمعنى أنه كان يأخذ بطريقة أهل الحديث أحياناً، وبطريقة الرأي والقياس أحياناً أخرى. لذلك اعتبره البعض واضع علم الأصول الذي حدد له له الضوابط وبالموازين. للشافعي مؤلفات منها: رسالة في أصول الفقه و"كتاب الأم" وتلمذ عليه أحمد بن حنبل.

د - المذهب الحنبلي:

وصاحبه أحمد بن حنبل الذي لم يأخذ بالاجتهاد لذلك كان عدد أتباعه قلائل وهو إمام أهل الحديث في عصره. سمع لأشهر العلماء في عصره وأخذ عن أكابر المحدثين وتنقل طلباً للعلم بين الكوفة والبصرة والشام واليمن ومكة والمدينة.

يعد المذهب الحنبلي أكثر المذاهب المتقيدة بالسنة دفاعاً عن معتقداتها دعماً للعباسيين .

على أن أول من فسر القرآن تفسيراً أميناً هو يحيى بن زياد المشهور بالقراء - إمام الكوفيين - والذي كتب معاني القرآن وتتابع بعده المفسرون ومن أشهرهم: ابن جرير الطبري، أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، والقرطبي - بالمأثور - اعتماد الرواية الموروثة المسلسلة عن الصحابة والتابعي - وأشهر المفسرون بالرأى مفسرو المعتزلة وأشهرهم الزمخشري، والشيعة وممثلهم الطبرسي .

ولما كان أصحاب المذاهب الأربعة المثار إليها قد أسس كل منهم مدرسة تتبع منهجاً معيناً في الفقه الإسلامي فقد لجأ أتباع هذا المذهب أو ذاك إلى جمع الفتاوى التي تتناسب وتؤيد وجهة نظرهم الفقهية وتدوينها. الأمر الذي أدى إلى حركة تدوين واسعة في الفقه الإسلامي فمحاولة الاستنباط منها.

نستطيع القول بعد تلك الكلمة العجلى أن العصر العباسي كان أكثر العصور الإسلامية نشاطاً في التشريع وأوفرها عدداً في الفقهاء والمجتهدين. وإن هؤلاء الفقهاء اعتمدوا على اجتهاداتهم الذاتية، وتمتعوا بقدر كبير من الحرية حتى جعلوا العرف في أسس التشريع، مستندين إلى حديث شريف «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن...» وأن الفقهاء - استناداً إلى العرف - أخذوا هذه العادات واختاروا الصالح منها وأدخلوه في الفقه، وأخيراً أن تعدد المذاهب الفقهية في العصر العباسي يشير إلى حرية الرأي التي تميز بها هذا العصر.

٢ - اللغة والأدب:

كانت اللغة ممتزجة بالأدب في القرن الأول للهجرة وما قبله بحيث أن العالم بالنحو كان عالماً باللغة، وإن برز في أحدهما على حساب الآخر بعض العلماء. ولما بدأ تدوين اللغة والنحو، كان العراق أسبق الأمصار الإسلامية في ذلك أن الفضل في العراق نفسه كان للبصريين، ثم الكوفيين فالبغداديين على التوالي .

كما كان من الطبيعي أن تمر عملية جمع اللغة بثلاث مراحل :

- الأولى:

تمت في هذه المرحلة جمع الكلمات . حيثما اتفق وتدوينها دون ترتيب .

- الثانية:

جمعت الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضوع واحد في هذه المرحلة كما ألفت فيها كتب في موضوع واحد، فألف أبو زيد كتاباً في «المطر» وكتاباً في «اللبن» وألف الأجمعي كتاباً في «البخل والكرم» وكتاباً في «الإبل»

- أما في المرحلة الثالثة:

فقد وضع معجم يشمل كل الكلمات العربية على نمط خاص، ليرجع إليه من أراد البحث عن معنى كلمة . وكان السباق إلى وضع معجم في اللغة العربية الخليل بن أحمد (١٠٠ - ١٧٥هـ) وقد عاصره كل من الأصمعي (١٢٢ - ٢١٣هـ) وأبو زيد (ت ٢١٥هـ) الأمر الذي يوضح بأن الثلاثة قد عاشوا معاً زمناً طويلاً . وإن المراحل الثلاث كانت أقرب إلى التداخل منها إلى أن تكون منفصلة بعضها عن بعض . ولما لم يكن في الإمكان جمع الأدب كله لكثرتة، فإنهم، عند الجمع، اختار علماء الأدب ما كان يحلو لهم من الشعر والنثر سواء، كما حدث عند جمع اللغة، ودونوه فكانت لهم المختارات الشعرية والنثرية .

٣ - النحو والصرف:

انكب بعض العلماء على دراسة اللغة، كما انكب الفقهاء على دراسة القرآن والأحاديث دراسة نحوية وصرفية فكان من أبرز علماء النحو والصرف في العصر العباسي الأول الخليل بن أحمد «الذي دأب على دراسة اللغة وعلومها، يخترع ويستنبط الأصول، إلى أن كان أول من ابتكر المعاجم العربية وأول من وضع علم العروض واخترع علم الموسيقى العربية وجمع فيه أصناف النغم . والخليل بن أحمد هو الذي عمل النحو الذي نعرفه اليوم «ومد أطنابه، وسبب علله، وفتق

معانيه . . . » على حد قول الزبيرى . وقد علم الخليل بن أحمد كل ذلك «لسيويه»
الذى عمل على تدوين الأمانة التى أخذها عنه .

ونهج فى الأدب بعض من شعراء العصر العباسى وفق مناهج جديدة فى
المعاني والموضوعات والأساليب . فاشتهر أبو نواس فى شعر الخمر والغزل
والصيد، وأبو تمام الطائي الذى اشتهر بنزعتة الفلسفية والعقلية فى الشعر،
والبحتري صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة، وابن الرومى صاحب الشعر
الغزير الذى اتصف بالمعاني النادرة، وأبو العتاهية صاحب قصائد الغزل والحكمة
والموعظة .

وكانت وراء ارتقاء الشعوب وتطورها وظهور مناهج جديدة فى العصر
العباسى أسباب عديدة منها:

١ - اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء فى الدولة العباسية عنها فى العصور
السابقة .

٢ - أثر الثقافة الأجنبية عامة والفارسية خاصة فى الشعر والأدب العباسى .

٣ - انتشار الشعوبية التى عملت على الخط من شأن العرب ونقد
أشعارهم .

٤ - تشجيع الخلفاء الوزراء وكبار رجال الدولة للشعر والشعراء .

٥ - الخلافات التى قامت بين الفرق كالشيعة والمعتزلة، واستعانة كل فريق
بالشعر والشعراء للدفاع عن مبادئه والتغلب على خصومه .

ولم يكن حظ النثر أقل من حظ فى العصر العباسى، فظهر فى مجال النثر
عبد الله بن المقفع الذى نقل كثيرا من الكتب الفهلوية إلى اللغة العربية مثل كتاب
كليلة ودمنة، وعبد الحميد الكاتب الذى يعد شيخ صناعة الكتابة، وابن قتيبة الذى
نادى بالتحديد فى الكتابة، والجاحظ البصرى الذى اشتهر بحرية الفكر وغير
هؤلاء كثيرون .

ثانياً: العلوم العقلية:

نشطت حركة الترجمة عن اليونانية والفارسية والفهلوية وغيرها من اللغات إلى العربية حتى ازدهرت هذه الحركة في العصر العباسي بفضل تشجيع الخلفاء العباسيين لها. فبدأ أبو جعفر المنصور عهده بترجمة الكتب، فنقل له حنين بن إسحاق بعض كتب أبقراط وغالينوس في الطب، ونقل ابن المقفع بعض الكتب.

ولقيت حركة الترجمة العناية التامة في عهد هارون الرشيد وعهد ابنه المأمون، فأرسلت البعثات إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والموسيقى والطب وغيرها. ولم تقتصر العناية بحركة الترجمة على الخلفاء فقط بل سمعنا عن بعض دوى اليسار الذين أنفقوا أموالاً طائلة في استحضر الكتب، مثل موسى بن شاكر وهم محمد وأحمد والحسن الذين أنفذوا حنين بن إسحاق إلى بلاد الروم فاستحضر لهم عدداً من الكتب الفريدة في الهندسة والموسيقى والنجوم وغيرها. .

١ - في الفلسفة والفلاسفة:

ازدهرت الفلسفة في العصر العباسي، واشتهر من تأثروا بالفلسفة اليونانية يعقوب بن إسحاق الكندي، وقد تأثر بفلسفة المعتزلة ورائهم، كما تأثر بالفلسفة اليونانية وخاصة فلسفة أرسطو، واشتغل بالرياضيات، وما وراء الطبيعة وكتب مؤلفات في الفلسفة والمنطق والحساب والموسيقى والنجوم والهندسة والفلك والطب والجدل والسياسة. واشتهر عمالقة آخرون إلى جانب الكندي، أمثال: أبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩هـ) والرئيس ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) والغزالي (٥٠٥هـ). هذا على الرغم مما تعرض له الفلاسفة في بعض حلقات العصر العباسي نتيجة لاتهامهم بالزندقة.

واشتهر أيضاً في العصر العباسي بالفلسفة إخوان الصفا الذين كانت لهم نزعة شيعية متطرفة، لذلك عطف عليهم آل بويه ولاقوا كل عناية منهم. فاستطاع

إخوان الصفا إتمام ما بدأه المعتزلة، وخاصة ما يتعلق بالتوفيق بين العلوم والدين وتحقيق الانسجام بين الشريعة والفلسفة اليونانية. لذا لجأوا إلى تأويل القرآن تأويلاً مجازاً وانتخبوا رسائل تعتبر دائرة معارف ضخمة.

٢ - فى الطب والأطباء:

تقدمت العلوم الطبية تقدماً كبيراً، الأمر الذى جعل العباسيون يعتمدون على الأطباء العراقيين والهنود بعدما توصلوا إلى تشخيص بعض الأمراض بفضل العلوم اليونانية التى أفادوا واستفادوا منها. وبخاصة حينما عمل الخلفاء العباسيون على تشجيع الأطباء وتأسيس المدارس الطبية والمستشفيات. فقد أمر أبو جعفر المنصور ببناء مستشفى للعميان ومأوى للمجاذيب ولجأ للعجزة فى بغداد. كنا شيد هارون الرشيد مستشفى كبير لتعلم الطب زوده بمكتبة حوت المؤلفات اليونانية والهندية والعربية وكذلك الطبية.

اشتهر ابن بختيشوع فى الطب على أيام الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل الذين كانوا يثقون به ثقة كبيرة فسمحوا له بالكشف على نسائهم ومعالجة أولادهم، كما اشتهر فى عهد المعتصم والواثق يحيى بن ماسويه. إضافة إلى حنين بن إسحاق وابنه إسحاق بن حنين اللذين كانت لهما المؤلفات الكثيرة فى الطب والعقاقير الطبية. وفى عهد الخلافة العباسية أشرف سنان بن ثابت على امتحان الأطباء فى بغداد سمح بنهايته لثمان وستين طبيباً بمزاولة مهنة الطب شريطة أن يحتفظ كل طبيب بصورة عن الوصفة الطبية (اسم الدواء) التى يعطيها للمريض لتقديمها إلى الرئيس (النقيب) ليفحصها ويحكم بالموافقة إذا كان العلاج متفقاً مع القوانين وإلا حلت عقوبة قاسية بالطبيب خاصة إذا توفى مريض بسبب الإهمال أو الخطأ فى وصف الأدوية من قبل الطبيب المعالج.

وتقدم الطب والأطباء كان وراء تشجيع العباسيين الذين لم يهتموا ببناء البيمارستانات أو المستشفيات أيضاً وأولها عناية فائقة. كما شجعوا على كتابة المؤلفات الطبية التى تشرح أسباب الداء وتصف الدواء، فاشتهر أبو بكر محمد

الرازي (ت ٣١١ هـ) فى حقل المؤلفات الطبية بتأليفه كتاب " المنصورى " والذي أهده إلى منصور بن نوح السامانى صاحب الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر فنسب إليه - المنصورى - وكذلك كتب الرازي كتاب " الحاوى " تحدث فيه عن الأمراض والصحة والجراحات والأدوية فنجح نجاحا كبيرا فى تشخيص الحميات ذات البثور كالجدري والحصبة ووصف الدواء لهما . ويجب ألا ننسى كتاب " القانون فى الطب " لابن سينا الذى كان من الموسوعات الطبية والتي ظل يدرس فى الجامعات الأوروبية حتى القرن الثامن عشر بعدما ترجم إلى اللغة اللاتينية .

٣ - فى علم الفلك والفلكيون :

سيطرت أقوال المنجمين وعلم النجامة على تفكير الحكام ، فلم يفعلوا شيئا أو يقوموا بعمل هام كشن الحرب قبل أخذ رأى الفلكيين - شأن العرب فى ذلك كشأنهم أيام الجاهلية - والأمثلة على ذلك كثيرة فالخليفة أبو جعفر المنصور اعتمد على أقوال المنجمين عند بنائه مدينة بغداد . كما أخذ برأى المنجمين عند بنائه مدينة بغداد . كما أخذ برأى المنجمين جوهر الصقلى مولى وقائد جيوش الفاطميين عند تأسيسه مدينة القاهرة . وهكذا لم يضع المنصور الحجر الأساسى لمدينته إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم بأن النجوم تشير إلى ازدهار هذه المدينة وطول عمرها . والشئ نفسه تكرر أمام جوهر الصقلى إذ أشار عليه المنجمون بعدم رمى ما بأيدي العمال من طين وحجارة فى الأساس قبل تحرك الأجراس التى ربطت بالحبال حول السور بناء لإشارة المنجمين الذين وقفوا ينتظرون اختيار طالع حسن لذلك حتى تبقى المدينة لهم ولنسلهم من بعدهم .

هذا التفكير فى العصور الوسطى أنعش الدراسات الخاصة بالفلك والنجوم فى العصر العباسى واشتهر فى علم الفلك فى عهد المنصور محمد بن إبراهيم الغزارى وفى عهد المأمون محمد بن موسى الخوارزمى (ت ٨٥٠م) وكذلك موسى بن شاكروهم : محمد وأحمد والحسن كما أنشأ علماء الفلك مراصد لمشاهدة النجوم ، وضبط أبعادها ومراقبة سيرها فى الشماسية ببغداد ، وفى جبل قاسيون

المشرف على غوطة دمشق. وظهرت مجموعة من كبار العلماء الذين اشتغلوا بهذه العلوم ومنهم، أبو عبد الله محمد بن جابر البتاني الحراني الصابي (ت ٣١٩هـ) الذى وضع الزيج الصابى وألف كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك وظهر بعد القرن الرابع الهجرى أبو الريحان البيرونى (ت ٤٤٠هـ) الذى حظى بمكانة كبيرة عند السلطان محمود الغزنوى.

ويرتبط بالعلوم الفلكية، العلوم الرياضية، التى اشتهر فيها ثابت بن قرة الحراني (٢٨٨هـ) وسنان بن ثابت (٣٣١هـ) اللذين تركا كثيرا من الدراسات والأبحاث فى المسائل الهندسية والأعداد وغيرها. هذا إضافة إلى أعمال الخوارزمى والبتانى والخازن والبصرى والبيرونى، وغيرهم ممن كتبوا وابتكروا فى الحساب والأعداد الهندسية وحساب المثلثات والجبر.

٤ - فى التاريخ والمؤرخون؛

شعر المسلمون منذ الأيام الأولى، لظهور الدولة الإسلامية وفتوحاتها وسيطرتها السياسية على بلاد جديدة واسعة بالحاجة إلى تدوين تاريخهم الذى بدأ فى المدينة والبصرة والكوفة فى العصر الراشدى ثم تلتها دمشق فى العصر الأموى. ولما ظهرت بغداد فى العصور العباسية استقطبت الفكر الثقافى كله إلى حد غابت معه عملية التدوين فى المدينة ودمشق، وقلت فى البصرة والكوفة فشكلت كل مدينة من هذه المدن مدرسة للكتابة التاريخية، على أن الكتابات التاريخية التى ظهرت فى البداية إنما وضعت على أساس بحث. ذلك أن المؤرخين بدأوا بكتابة السيرة النبوية والمغازى ثم تدوين القرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوى. ومن المؤرخين فى العصر العباسى كان الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧هـ) الذى عنى بكتابة المغازى والسير والتاريخ الإسلامى عامة.

فألف تاريخه الكبير "مغازى الرسول" وكتاب "الطبقات الكبير"، الذى رتبته حسب السنين. وكتب "الطبقات" و"السيرة" وكتاب "التاريخ والمغازى والمبعث" وكتاب "أزواج النبى" وكتب "فتح العراق" و"فتوح الشام" وغيرها الكثير إلا أن

أهمها جميعا " الطبقات أو التاريخ الكبير " وفيه أرخ الكثير من أحداث الإسلام حتى عهد خلافة هارون الرشيد، وقد أخذ عنه الطبرى فى كتابه " تاريخ الرسول والملوك " حتى سنة ١٧٩هـ. ولكن لم يبق لنا من كتبه إلا كتاب " المغازى " واليعقوبى، (ت ٢٨٤هـ) والمسعودى (٣٤٦هـ) وابن الدينورى (ت ٢٧٠هـ) الذين كتبوا فى تاريخ الدول والعهود.

وكتب التاريخ حسب الموضوعات، كما كتب حسب الطبقات بصرف النظر عن السنين. إذ ارتبط التاريخ حسب الطبقات بعلم الحديث والعلوم الدينية الأخرى، فجاءت " طبقات ابن سعد " ترجمات لشخصيات محدثة هامة و " طبقات الشافعية " للشعرانى تراجم لشخصيات فقهية، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة، وطبقات الشعراء لابن المعتز وغيرها...

واشتهر فى علم الأنساب محمد بن السائب الكلبى (ت ١٤٦هـ) وابنه محمد بن السائب الكلبى (ت ٢٠٤هـ) ومصعب الزبيرى (ت ٢٣٣هـ) وتلميذه وابن أخيه أبو عبد الله الزبيرى بكار بن مصعب القرشى (ت ٢٥٦هـ) الذى كتب " نسب القرشيين " فى مجلدين ثم أحمد بن يحيى البلاذرى (ت ٢٧٩هـ) الذى ترك لنا كتابه الكبير (أنساب الأشراف) الذى شاءه سجلا عاما للتاريخ الإسلامى، انطلاقاً من دراسة شخصيات الأشراف عن طريق أنسابهم ويبدأ الكتاب بالحديث عن الرسول أفضل الأشراف العرب.

٥- فى الجغرافيا:

أدى اتساع رقعة الدولة العباسية وانتشار البريد فى سائر أقاليم الدولة، وازدهار التجارة فى العصر العباسى الأول إلى الاهتمام بالطرق وبأخبار البلاد والعباد ولاسيما النائية منها. فكثرت الأسفار وازداد عدد الرحالة حتى وصلت رحلات المسلمين فى عهد الرشيد إلى الهند وسيلان والصين، فضلا عن الرحلات التى ارتبطت بزيارات الحج إلى مكة والمدينة.

ظهر من الجغرافيين فى العصر العباسى الأول ابن خرداذبة صاحب كتاب المسالك والممالك الذى يعتبر أقدم الكتب الجغرافية التى ظهرت باللغة العربية وتوفى ابن خرداذبة (ت ٣٠٠هـ) وكان يعمل فى البريد فى إقليم الجبال (ت ٢٧٤هـ) وعنوان كتابه "المسالك والممالك" ثم الخوارزمى محمد بن موسى المتوفى فى منتصف القرن الثالث للهجرة، وواضع كتاب "صورة الأرض" وقد ضمنه خريطة متشابهة لخريطة بطليموس عن العالم القديم، ولذلك يعد الخوارزمى أول صانعى الخرائط من المسلمين.

لكن كتابة الجغرافيا تطورت فى القرن الرابع الهجرى وأرست قواعد مدرسة فى الجغرافيا العربية التى ارتبطت بالتاريخ عن طريق: اليعقوبى (ت ٢٨٢هـ) الذى ألف كتاب "البلدان" نتيجة رحلات طويلة قام بها إلى أرمينيا وإيران والهند ومصر وبلاد المغرب. وكتب الهمداني (ت ٣٣٤هـ) كتابه "صفة جزيرة العرب". واشتهر المسعودى (ت ٣٤٣هـ) لكتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر" الذى كتبه بعد زيارته الفرس والهند وجزيرة سرنديب (سيلان) وبحار الصين، فضلا عن سواحل شرق أفريقيا والسودان، وإقليم بحر قزوين، وكذلك الأصطخرى، الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى وكتب "الأقاليم"، موضحا إياه بالخرائط. وكتب أيضا كتاب "المسالك والممالك" واضعا فيه مشاهداته البلاد التى زارها.

ومن كتاب المدرسة الجغرافية العربية أيضا: ابن حوقل - المقدسى - الإدريسى - البكرى - المهلبى - البيرونى (ت ٤٤٠هـ). وهذا الأخير يعود إليه الفضل فى إرساء قواعد الجغرافية القائم على المشاهدة والرحلة والتجربة الشخصية كما كان عند العرب الأوائل.

obeikandi.com

المراجع

- ١ - د. أحمد الشامي: الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول - دار الإصلاح - الدمام - ١٩٨٥ م.
- ٢ - د. حسن الباشا: الدولة العباسية، القاهرة - ١٩٨٧ م.
- ٣ - د. إبراهيم أيوب: التاريخ السياسي والحضارى - بيروت - ١٩٨٩ م.
